عشرة أيام تكفى

رواية بقلم
د. رشيدة مهران



إهـــــــــــــداء

* * *

إلى كل من يستطيـــع أن يمنـح

الآخـــرين بعـــض لحظـــات

من السعـــادة ...

د.رشيدة مهران

— ١ —

أنا ... راوية فاضل أقترب الآن من الثلاثين من عمرى .. امرأة ناضجة الأنوثة لا أدرى كيف مر كل هذا العمر لقد مرت علىّ تلك السنوات كأنها دهر طويل ... أعنى تلك السنين التى قضيتها متزوجة ... عشرة أعوام ... لا لا يمكن أن تكون عشرة فقط . كأنها دهر طويل . كأنها كل عمرى . . يخيل لى أننى متزوجة منذ ولدت عشرة أعوام أعيشها زوجة فصلتنى عن شبابى و بعدت بى عنه مسافات ... لم أعـــش شبابى كما ينبغى . لقد كنت فى السابعة عشرة حين تزوجت لم أحب ولا مرة . لقد داعب خيالى المراهق بعض الأحلام ولكنها لم تكن أبدا أكثر من أحلام .

كنت أهوى قراءة القصص بشغف كبير ... وكنت أتخيـــل نفسى بطلة كل قصة . أحب وأكره .. وأضحى وأنتقم مع كل واحدة منهن .

كان وقتى كله موزعاً بين المدرسة والمذاكرة وقراءة القصص ولم أكن بالتلميذة النابغة ... كنت متوسطة معتدلة فى مذاكرتى . وباقى وقتى كله للقصص . وما كان يسمـــح لى بغير القراءة لقضاء وقت الفراغ . بيئة متزمتة تربية صارمة ... لاخروج لا اختـــلاط إنما هى الكتب التى تزور بيتنا .

واتخذت من القصص عالما لى ومن دنيا بطلاتها دنيا لى . ولعل هذا ما جعلنى لا أنغمس فى قصة حب . أو لعلى لم أصادف من يجعلنى أحبه.

كنت فى السابعة عشرة حين أتانى «عبد الجليل» بك خاطبا . محامى له اسم كبير وشهرة . عريس من هذه الأنواع التى لايرفضها الأهل أبدا . كنت فى مستهل دراستى الجامعية ولا أدرى - حقيقـــة إن كنت قد فرحت بالعريس أم أنى كنت رافضة له .

استمعت لآراء العائلة قال أبى . عريس ممتاز والزواج لايمنع الدراسة بأى حال ... وهذه فرصة لك لايجب أن تضيع . وفرصة لى لأخلص من مسئوليتك فأنا لاأحب مسئولية البنات . ولن أجد أفضل من «عبد الجليل» بك ليحمل عنى مسئوليتك . رجل ذو علم ومال وشهرة .

وقالت أمى : «عبد الجليل » بك رجل بمعنى الكلمـــة .. ولو أردت أن تقطعى دراستك فهذا أنسب الأوقات وأنت محظوظة ولاشك حين أتاحت لك الظروف مثل هذا الرجل .

وكان أخى صغيرا لم يفهم من كل هذا سوى أنه سيصبح لى عربة خاصة بسائق خاص .

واحدة فقط هي التي سألتني هل تجـــدين يا راوية في نفسلك ميلا له ؟...

وهذه كانت جدتي.

قلت لها لا أدري ياجدتي .

وحقيقة كان الأمر كله كأنه لايخصني فما كنت أجد في نفسي رفضا ولاقبولا لهذا الرجل ... لم تكن لي تجربة ... لم أتعلق بأحد من قبل . . اللهم إلا ذلك الذي أثار بشكله خيالي الطفل . . هناك في تلك البلدة الصغيرة التي كنا نعيش فيها قبل مجيئنا إلى القاهرة ...

كنا نعيش في دمياط في بيت جدتي ... بيت صغير يتكون من أربعة طوابق وكانت جدتي في هذا الوقت تعيش في شقة أعلى المنزل ... لم يكن لها سلم مع البيت كان سلم البيت ينتهي قبل السطح وهكذا كانت تصعد إلى السطح بسلم خاص صغير .

وكانت شقة جدتي متعة لنا .. كانت تقع في جزء من السطح والباقي كأنه روف جميل يحيط بالشقة الصغيرة واستغل جدي في حياته هذا الفراغ ليجعل منه مكانا أشبه بالحديقة ... حتى السلم الصغير الخشبي كان محاطا

بالزرع الأخضر .. وكنا نسميها « الجنة » بالرغم من أن جدتى كانت تتمنى لو أنها بادلت أحد السكان بجنتها هذه التى كان الكل يحسدها عليها .

فى هذا البيت نشأت . وكان الصعود إلى الجنة وقراءة القصص فى فضائها الأخضر هو أحلى مافى وقتى ...

كان هو أحد أفراد إحدى الأسر القلائل التى كنا نزورها والتى نذهب معها إلى مصيف «رأس البر» القريب من بلدتنا دمياط .. هناك كانت تختلط العائلتان لقضاء فصل الصيف فى متعة ومرح . كانت أيام « رأس البر هى» الأيام الوحيدة التى يسمح لنا بالحركة واللعب والسباحة فيها .

كنت فى الثانية عشرة عندما بدأ شكله يجذبنى ... كان حين يلقانى يحملنى ويقبلنى وكنت دائماً أتلقى قبلاته ضاحكة .. ولكن منذ أن بدأ شكله يلفت نظرى أو منذ أن ابتدأت أفكر فى أن له شكلاً جميلاً ابتدأت أقاوم قبلاتـــه !

كان يشكونى لأمى يقول لها : تصورى راوية أصبحت الآن تخجل من قبلاتى ...

فترد والدتى بقولها : طبعا راوية كبرت . صارت عروسة .

كان أسمر اللون .. فاحم الشعر ... عيناه بلون العسل ... حين يضحك تضحك عيناه بحيوية عجيبة . طويل القامة .. عريض الصدر . كان شكله أسطوريا يثير خيالي ... وكنت أنسج حوله قصصا مشابهة لتلك التي أقرؤها . لا أدري كم كان عمره وقتها ولكنه كان في نظري كبيرا ... عملاقا . كنت حين أذهب إلى السينما أتخيله هو بطل الفيلم الذي أراه ... وحين تحكي لي إحدى صديقاتي رواية قرأتها أو فيلما شاهدته أجده هو ممثلا في خيالي وتدور حوله أحداث القصة .

إلى أن جاء يوم وزين بيتهم بالنور والزهور وقالوا الليلة فرح « يوسف » وكانت أمي قد أعدت لي ثوبا أبيض كمثل باقي فتيات الأسرة الصغيرات . وكانت ليلة رقصت فيها الراقصات وصدحت الزغاريد وأنا قابعة تحت قدميه أنظر إليه بإعجاب شديد .

لقد كنت في الثانية عشرة ولا أدري أي معنى للعاطفة أو الاعجاب . إنما كان شكله يجذبني ويملأ نفسي بإحساس عجيب لا أعرف ماهو . حتى شكل العروس ليلتها بكل زينتها ... وثوبها الأبيض الناصع وطرحتها الطويلة التي كنت أشارك في حملها ... لم تستطع أن تأخذني منه .

عيناى كانتا تريانه هو فقط . كنت أراه أروع الموجودين وكان يلبس بدلة بيضاء هو الآخر ... ولكنه كان أروع من العرس ... كانت سمرته تشكل مع اللون الأبيض صورة بديعة . ورآنى أنا أجلس تحت قدميه . وأنظر إليه ..

صاح زارية !

وجذبنى إليه يحاول أن يقبلنى وأنا أدارى وجهى منه ... أقاوم قبلاته .

وقال لعروسه : هذا منافس خطير لك : لو كانت كبيرة لتزوجتها لأنها حبى الأول .

وضحكت العروس وربتت وجهى برقة .

وكانت هذه الليلة آخر عهدى به . فقد سافر هو وعروسه إلى أين لا أدرى . وكنت أسمع أنه ذهب فى بعثة أو شىء كهذا . لم أكن أفهم تماما فى هذا الوقت .

وبعدها بسنوات قليلة أنتقلنا إلى القاهرة وأخذنا جدتى معنا بعد أن

أصبحت وحيدة وأصبح الصعود إلى جنتها يزعجها .لأن السلم صغير وضيق. وبقيت شقة جدتي هذه مقفلة حتى إذا قدم أحدنا لتحصيل الإيجار استراح في هذه الشقة الجميلة مدة إقامته .

ولم أذهب من وقتها إلى دمياط وأن بقيت ذكرياتها أبدا فى خيالي .. خاصة جنة جدتي ... ... وصديقنا أسطورى الشكل . هذا فقط ما كان فى خيـــالى .

إنهـا ليست تجربة حب ... أو حتى ما يشبه ذلك ... كل مافى الأمر صورة جميلة كنت أحب النظر إليها ولا أفهم بعد ذلك شيئـا .

* * *

وحين جاءنى «عبد الجليل» بك قفزت تلك الصورة الحلوة إلى خيالى. كان «عبد الجليل» شكلا مختلفا تماما لم يكن طويل القامة مثـــل « يوسف » ولم يكن قصيرا أيضا . لم يكن أسمر اللون . كان يميل إلى البياض وعيناه لم أكن أدرى لونها بالضبط ولكنها لا تضحكان أبدا كان يضحك بفمه فقط. كان شعره خفيفا يمشطه كله إلى الخلف لم يكن صدره عريضا مثل يوسف.

وكانت له بطن بارزة بعض الشيء أصبحت فيما بعد كرشا لا بأس به .
ووجهه الأبيض مكتظ باللحم .

كان مهــذبا هادئا ... خفيض الصوت تبدو على وجهه علامات الطيبة ... ولكن ... كانت له نظرة خاطفة أحيانا تمحو آثار الطيبة تماما من على وجهه .

عددوا أمامي مزاياه وساعدوني جميعا على قبوله .

حين جلس إلي لأول مرة خاطبني بلغة مهذبة جدا وقال : أنسة راوية هل تحبين إكمال راستك ؟

فقلت : بالطبـع فمن يصل إلي الجامعة ولا يتم راسته ؟

قال : تماما ... كما كنت أتوقع الإجابة وخاصة أن راستك في مجال الاجتماع تعتبر تسلية لا دراسة جادة .

قلت : تسليه !! أنا لا أخذها على أنها تسلية ولو أرت لتسليت بأشياء أخرى غير الدراسة .

وهنا ظهرت النظرة الحادة الخاطفة في عينيه وقال. هل في استطاعتك مثلا أن تقرنينها بدراسة الحقوق ؟ .

ومرة أخرى اكتسى وجهه بعلامات الطيبة وقال : أن دراسة الحقوق ياعزيزتى تتيح لك التعامل على مستوى الفهم والمعرفة ... وعلى كل عندى كتب شيقه فى القانون أتمنى اطلاعك عليها لتوسيع ادراكك واثراء معرفتك بالأمور .

وفى هذه الليلة بعد انصرافه خلوت إلى جدتى وقالت لى : ايه ياراوية لا بد أن تقولى كلمتك .

فقلت لها . أنا لاأحبه ياجدتى .

فقالت : أيضا لاتكرهينه .. المهم هل تحسين بقبول له؟ ...

ولا أدرى كيف سرحت ووجدت نفسى أقول : ليس جميلا كيو ... وتوقف الاسم على شفتى .

هذه الكلمة لم أكن أوجهها لجدتى كنت أحادث نفسى بها ..

وأخرجتنى جدتى من اغفاءتى وقالت : أظننا لانطلب من الرجل أن يكون فى جمال نجوم السينما.

وتمت الخطبة التى اشترط « عبد الجليل » أن تكون شهرين فقط .

فكل شيء موجود الشقة والأثاث الذى جدده من قبل لأنه كان ينوى الزواج وقال انه لايريد أن استغرق وقتا طويلا فى إعداد الملابس لأنه سيحضر لى كل شيء بعد ذلك ولذلك يكفى شهران ، لأنه متعجل .

وانقضى الشهران زارنا فيها زيارات معدودة معتذرا دائما بانشغاله الشديد فى القضايا . كنت أراه دائما فى وسط الأسرة وكان يحضر لى فى كل مرة هدية قيمة كنت أفرح بها .

ولا أدرى كيف تم الزواج بسرعة ووجدت نفسى فى بيت جديد أنا وعبد الجليل ، بيت فخم ... أثاث أنيق ... وكثير من التحف يتناثر هنا وهناك .

وفى ليلتى الأولى معه قلت : هل سنذهب إلى أى مكان لقضاء بعض أيام كما أسمع عن شهر العسل؟

قال : ربما .. ولكن ليس الآن لأنى مشغول كما تعرفين.

قلت : فلنذهب حتى إلى الجنة فى دمياط .

أبدى اندهاشه لهذه الكلمة وقال : أية
جنة تلك التى يمكن أن تكون فى دمياط ؟ !

فحكيت له بحماس عن جنة جدتى .. وراعنى أن لا أجد صدى لحماسى على وجهه .. إنما وجهه الأبيض المكتظ باللحم خالى تماما من أى تعبير .. فقط ينظر [illegible] يتفرس فى [illegible] ولم يرد [illegible] فقط أطفأ النور .. وجذبنى اليه بدون كلمة . ودار ما يدور فى مثل هذه المناسبات فى صمت .

كنت أريده أن يقول شيئا أن يملأ أذنى بالأمنيات .. أن يقول أنه يحبنى .. انى جنى أعجبه .

لم يقل شيئا .. ظل صامتا وأنا أيضا صامتة أنتظر كلامه .. وهو لا يتكلم . هممت أن أقول شيئا فسارع يقول اسكتى ! ! وكان فى كلمته هذه شىء يشبه الأمر . وانقضى الأمر كله فى سكون وتركنى ونام .. وظللت وقتا يقظى إلى أن غلبنى التعب فنمت .

وفى الصباح حاولت أن أنسى ليلة أمس وأن أكون لطيفة وانتظر منه أيضا أن يكون لطيفا معى .

قلت وأنا اقترب منه : لماذا لم تحادثني ليلة أمس ؟ لماذ لم تقل لي انى أعجبك .. انك تحبني .

قال بعد أن لمحت تلك النظرة القصيرة الخاطفة في عينيه : كنت أظن أن هذا مفهوم ضمنا .. والا لماذا تزوجتك ؟

قلت وأنا ازداد لطفا ورقة : ولكنني أحب أن أسمعه منك .

قال بعد أن مرت هذه النظرة مرة أخرى بعينيه .. ويبدو أن هذه النظرة كانت تظهر رغما عنه عندما لا يعجبه شيء .

قال : اسمعي يا .. ولم ينطق اسمي .. لا تنتظري مني أن أملأ اذنيك بحديث الحب والغرام .. نحن هنا زوجان أنفهمين . ولسنا نعمل فى فيلم سينمائي !! ..

أذهلتني المفاجأة ولكنني لم أناقش إنما أفقت وتبددت من حولي سحابة أحلامي الوردية .. وكلمات الصديقات عن شهر العسل .. وعن الحب ودنيا المحبين .

ومرت الأيام الأولى بنفس الطريقة . لم يمكث « عبد الجليل فى البيت سوى يومين فقط » . بعدها ذهب إلى مكتبه .

واتخذت الحياة طابع الرتابة من حولى .. وضاع حلم شهر العسل فى زيارات الأهـــل والأقارب ليباركوا لنا .. ولا أدرى على ما كانت المباركة ؟ .

وقد تعودت فى كل مرة أن يأخذنى فى صمت .. ويتركنى فى صمت .. وأنا لا ادرى ماذا أفعل ؟ أو ماذا يجب علىّ أن أفعل .. ما كنت أعرف شيئا ولم يحاول هو أن يعلمنى شيئا .

وكان فى كل مرة يتركنى وأنا فى حيرة .. ماهو دورى إذن فى هذه العملية التى تتم فى سكون ؟ هل من المفروض أن أكون لا شىء .. أن لا أحس ولا أشعر فى هذه الدقائق القصيرة التى يتم فيها الأمر ؟ . لقد كان يشعرنى أنه يمارس شيئا مخجلا .. لا نتحدث بشأنه . ولا حتى تلتقى عيوننا.

كان من طبعه الصمت وكنت حتى أحسب الكلمات التى نتبادلها خلال اليوم كله فلا أجدها تزيد عن بضع كلمات عادية تتعلق بالحياة اليومية .

كنت أحزن وأثقل علىّ هذا السكون المخيم على البيت سواء فى وجوده أو عدم وجوده .

زارتنى يوما صديقتى « هدى » وهى الصديقة المقربة إلى نفسى وكانت

هي أيضا متزوجة حديثا .. كانت مرحة سعيدة أخذت تقص على عن سعادتها وكيف انها لن تنسى ليلتها الأولى ... لقد حملها زوجها وظل يدور بها فى المنزل كله يضاحكها ويقبلها ويحدثها عن حبه لها .. ورغبته فيها . وظلت تتكلم وتتكلم وأنا أسمعها صامتة حتى سكتت

وقالت : لماذا لا تحكى لى أنت أيضا ألم يفعل معك ، عبد الجليل ، مثل هذا ؟

فقلت من خجلى : طبعا طبعا ولكن ليس بهذا الشكل .

فقالت : لا بد انك مازالت خجلى منه . لا بد أن تنطلقى معه ، أن ترضيه ويرضيك .

ويبدو أنها لمحت الحيرة على وجهى فقالت : ألا تعرفين كيف تشاغلينه .. كيف تثيرينه ؟ وضحكت وأسرت فى أذنى بعض كلمات تظاهرت أمامها إنى أعرف ما تعنيه وأفهمه بل وأفعله أيضا .

وحين اجتمعت به حاولت أن أنفذ كلام الصديقة .. فتمنعت .. وضحكت وهممت أن أجرى منه حتى يلحق بى وتضحك معا .. ولكنى تجمدت حين رأيت نظرته القصيرة الحادة تملأ عينيه . وحين وجدته يقول : من أين تعلمت هذا ؟ من أخبرك بهذا ؟

فحكيت له عن صديقتى وكيف حملها زوجها . وكيف يجمعهما المرح حين يخلوان لبعضهما .

فانتفض غاضبا وقال : المرأة المهذبة لا تتحدث مع الصديقات فى مثل هذه الأمور . هذه أمور خاصة وأنا لا أسمح أن تتناولى حياتى الخاصه مع الصديقات الماجنات .. صديقتك هذه لا تدخل بيتى مرة ثانية .. وأنت لعلك تخجلين من نفسك وتعودين إلى عقلك مرة أخرى . فأنا متزوج بنت ناس ولم أتزوج أرتست !!!

جرح قلبى بكلماته .. أوجعتنى قسوته .. حاولت أن أخاصمه فتركنى .. ظل يدخل صامتا ويخرج صامتا إلى أن مللت هذا الصمت الرهيب وبدأت أحادثه . فرد على وكأن شيئا لم يكن . واستأنف طريقته التى لا تتغير .

قلت له يوما : أريد أن أخرج ..

قال : هل منعتك السائق تحت أمرك يذهب بك حيث تشائين ثم انك تخرجين فعلا ويذهب بك السائق إلى أهلك .. وأهلى وصديقاتك وإلى المحلات .

قلت : أخرج معك .

فقال : انا مشغول ثم انى أمـر عليك كثيرا لآخذك من بيت أهلك. بعد أن أبقى معهم فترة ثم نعود هنا معا فماذا تسمين هذا ؟ اليس خروجا ؟ .

ذهبت مرة لزيارة صديقتى « هدى » ولم استطع إلا أن أطلعها على الحقيقة .. حكيت لها عن طريقته معى وحكيت لها عن غضبه حين علم انى تناولت معها هذا الحديث ورغبته فى عدم زيارتها إلى .. فضحكت وقالت : يكفى أن تأتى أنت إلىّ أو نتحادث بالتليفون ولكن حرام أن تعيشى هكذا .. أنت كأنك أرملة ..

وزادت ضحكاتها وقالت : مارأيك فى هذا الاسم سأطلقه عليك .

قلت لها : والله هذا اسم حقيقى .

وعدت إلى البيت ترن فى أذنى كلمة أرملة .. انى فعلا أستحقها .

* * *

— ٢ —

مر عامان والحياة هكذا .. فتعودتها حاولت أن أشغل نفسى بدراستى وماكان يسمح لى أن أذهب إلى الكلية إذ كنت منتسبة بها . أذاكر فى البيت وأذهب لأداء الامتحان .

كبرت فى هذين العامين عشرين سنة . أصبحت هادئة صامتة .. أخترت لى ركنا فى البيت أجلس فيه دائما على مقعد هزاز أظل ساعات طويلة أهتز وأحملق فى لا شىء . الطبيعة المرحة فى هدأت واستكانت رغباتى الطبيعية ظلت مغلقة فما وجدت من يوقظها . ظلت هي الأخري صامتة .

لم يسألنى أحد عن حالى سوى جدتى التى سألتنى فى الايام الأولى من زواجى :

— هل وجدت فى نفسك قبولا له ؟

وحين أطرقت حيا قالت : غدا ستعودين عليه .

وظللت أنتظر غدا هذا ولكنه لم يأت .

كنت فى البداية لا أعرف هل أجد قبولا أم لا .. كنت أنتظر شيئا منه

يجدد لى هذا القبول . وبعد العامين عرفت معنى القبول واللاقبول . عرفت الآن أنى لا أقبله .. بل أنى أنفر من طريقته هذه بل أنه حين يقربنى أغمض عينى وأصمت حتى ينتهى .. وبمرور الوقت أصبحت أغمض عينى وأحتمله بجهد .. ثم أغمض عينى ولا أحتمله .. ولكنى ظللت صامتة .

قلت له يوما : زهقت .

واضطربت عيناه بنظرته القصيرة وقال :

— عند الدراسة .

قلت : زهقت رغم وجود الدراسة .

قال : لماذا لا تنجبين ؟ أكان يجب على أن أقول لك أنا الذى زهقت لانك لم تنجب ؟

عجبت لأنه لم يناقش أبدا معي موضوع الأولاد .

فقلت له : لكنك لم تطلب أولاداً .

قال : وهل يجب أن أقول الشيء الطبيعي اتى تزوجتك فتنجبين لى .. شغلت فكرى مسألة الطفل هذه فمعنى وجود طفل هو ارتباط أكثر فهل هذا هو الرجل الذي ارتبط به أكثر ؟

.. أسرعت إلى بيت أسرتي وجلست مع أبي وأمي وجدتي .. وحكيت لهم على كل شيء .. وعلى حياتي الخاصة معه .. وكيف أني للان أعرف معنى كوني متزوجة .. لأني لا أستمتع بشيء ولا أحس شيئا .

رماني أبي ببعض نظرات قاسية وأطرقت أمي تنظر في الارض كأنها خجلى من كلماتي .. وامتلأت عينا جدتي بالدموع .

قال أبي : ألا تخجلين من نفسك .. هل توجد امرأة محترمة تتكلم بمثل هذه الجرأة .. ماهذه الكلمات الوقحه ؟ .. احساس .. شعور ! « عبد الجليل » رجل ولا كل الرجال . يفعل لك كل ماتحلم به أي بنت مثلك . يغدق عليك المال .. تعيشين في أحسن مظهر .. سائق .. طاهي .. خادم فماذا تريدين ؟ يحق له أن يعترض لأنك للان لم تستطيعي أن تمنحيه ذرية فالعيب بك أنت وليس به !! ..

سمعت أبي ونقلت عيني إلى أمي التي لم تزد عن أن التقت عيناي بعينيها وأطرقت مرة أخري إلى الارض بصورة المغلوب على أمره .

ونظرت لجدتي فأشارت لي أن ألقاها بمفردها ..

وكان أبي لايزال يتكلم : لا أدري فيما جئت شاكية ؟ ولماذا جئت تسمعيني شكواك هذه ؟ وماذا تنتظرين مني ان اشير عليك به ؟اكنت تتصورين أن اقول لك تعالى وابقي هنا بجانبي ؟ هذا تمرد .. تبطر ..

قلت : كفى يا أبي وأنا آسفة لانى فكرت فى الشكوى لكم .. كل مافى الأمر انى كنت فى ضيق فأردت التحدث معكم .

وتركت الغرفة وانا مختنقة بالبكاء .

سارعت وجدتي خلفي . وخلونا أنا وهي فى غرفة أخرى وكنت أبكى .

واحتضنتنى جدتي وظللنا نبكى معا فترة حتى قالت جدتى : لماذا ياحبيبتى أثرت معهم هذا الحديث ؟ وماذا كنت تنتظرين من أبيك أن يقول غير هذا . اليس رجلا ؟ والرجل والأنانية شىء واحد .

قلت : ياجدتى أنا لم أقل شيئا سوى الحقيقة .. تحدثت عن نفسى .. عن مشاعرى . لم أفكر فى السائق والخادم والمظاهر . تكلمت عما أشعر به فأين الخطأ فى هذا ! ؟

فقالت : يا ابنتى ألا تعرفين أن المرأة هنا لم تتعود أن تتكلم عن نفسها ومشاعرها إلا همسا ؟

قلت : لماذا وهذا واقع .. كلانا زوج وزوجة .. فالزوج يأخذ مايريد .. والزوجه لا تحس شيئا .. فما الخطأ فى أن أقول هذا ؟

قالت : قوليه لكن لى .. لأمك .. لصديقة . ويكون بمثابة ترويح عن النفس .. أما بصيغه الباحثة عن حل ولأبيك فهذا هو الخطأ .

قلت وأنا أكاد أجن : ولماذا لا أبحث عن حل .. أليس من حقى ؟ هو يستمتع فأين نصيبى أنا من المتعة ؟

أخفت رأسها بيديها خوفا من أن يسمعنى أحد وقالت:

— يا ابنتى ياحبيبتى أنا فاهمة . ألم أكن أسالك دائما هل تجدين فى نفسك قبولا له ؟ هذا يا ابنتى ما كنت أعنيه بالقبول ..

نعم ياجدتى فهمت الآن معنى كلمة القبول .. إذن أنا لا أقبلك يا « عبد الجليل » لا أقبلك .. لا أقبلك .

* * *

عدت إلى بيتى بعد ان عرفت رأى أهلى … وقلبت الأمر فى رأسى فلم أجد حلا سوى أن أنجب طفلا يكون لى السلوى والتسلية .

ذهبت إلى الطبيب وبعد فترة علاج قصيرة حملت .

وقال لى « عبد الجليل » مبروك بلا انفعال أو حماس … وقد كنت تعودت أن هذا الإنسان يعيش بلا حماس لأى شىء خاصة لو تعلق هذا الشىء بى أو بالمنزل . أما عمله فما كنت ادرى عنه شيئا . فكل وقته لعمله وفى المنزل دائما غارقا وسط أكوام من الورق والملفات … ودائما فى حجرة المكتب طوال الوقت الذى يقضيه فى البيت ولا أراه أبداً فى البيت فى أى مكان غير المكتب إلا لفترات الطعام جالسا إلى المائدة وغير ذلك فى السرير نائما …

وكم ساعات مرت وهو جالس فى حجرة المكتب والباب مغلق … وأنا جالسة أهتز على الكرسى الهزاز … ربما أترك التليفزيون يلف أمامى ولا أراه فى أغلب الأحيان … وربما أنظر فى كتاب فى يدى … وأكثر الأوقات أحملق فى لاشىء …

وحين يخرج من غرفة المكتب ـ إذا كنت مازلت فى مكانى ـ يقول : لماذا لا تنامين ؟ ما الذى يبقيك ساهرة حتى الآن ؟

ثم يجرى إلى حجرة النوم وينام وحتى لا يسألنى هل تعشيت أم لا لأنه كان يطلب من الخادم بعض العشاء الخفيف والشاى ويتناوله أثناء عمله فى المكتب .

كنت فى أول الأمر أجرى لألحق به ولكن بمرور الوقت وبعد أن وجدت أن وجودى معه أو لحاقى به ليس له معنى ... فكثيراً ما كان يرتمى على السرير بدون كلمة وأحيانا ما كان يزيد على أن يقول كم أنا متعب وأريد النوم ولا أكثر من هذا .

حتى هذه المرات القليلة التى كان يأخذنى فيها تباعدت وتباعدت أكثر فأكثر بعد الحمل .

قلت له مرة رغماً عنى بعد أن أضنانى الصمت:

ــ « عبد الجليل » هل نحن فى خصام ؟

ولما وجدت الدهشة على وجهه قلت إذن لماذا لا تكلمنى ؟

اجتدت نظرته القصيرة فى عينيه وقال : أنا خارج المنزل طوال النهار أتكلم ... أتستكثرين على أن أرتاح فى بيتى ؟

قلت : لكن أنا لا أتكلم مع أحد ... ثم أنت زوجي ولابد أن نتكلم معا .

قال : إذن مع من أتكلم في هذا البيت ؟ معك بالطبع لكن أنت تريدين أن تثرثري وأنا غير مستعد للثرثرة والكلام الفارغ .

ندمت عمري على أني أثرت معه مثل هذا الحديث . كنت أعلم اني لن أحصل على نتيجة معه . هو هكذا .. من غير المعقول أن كلامي كان سيغيره ولكنه اليأس هو الذى دفعنى .. كأنى احاول ان اثير حديثا حتى لو كان عراكا وشجارا .

لا ادرى اى نـوع كان « عبد الجليل » هذا .. كان غريبا عجيبا في صمته .. في سكونه .. رجل بلا حماس بلا نزوات بلا حماقات . كم اشتقت ان اراه يوما يخطىء او يصرخ او يضحك .

كان الصمت يقتلنى فألقى عليه سؤالا لا يكون نصيبي بعده إلا التوبيخ والاستخفاف بما اقول . ولكن ما كنت استطيع ان اظل صامتة .. كان فعلا يثير فضولي حتى اوشكت مرة ان اسأله هل انت كائن حي ؟

كان يخطر ببالى أحيانا أنه لا يمكن أن يكون حيا . ربما مات من زمن وبقى منه هذا الاطار الخارجى الذى لا يتغير ولا يغير شيئا مما اعتاد عليه .

أحيانا كانت تخطر لى خواطر جنونية .. أتمنى لو أهشم راسه مثلا لأنظر بداخلها وأحيانا أتمنى لو أمزق صدره وانتزع قلبه أقبض عليه بيدى لأرى إن كان نابضا أم لا .. أشياء عجيبة أتخيلها وأنا انظـــر إليه وأنا جالسة على مقعدى المفضل . أراه من فتحة الباب حين يخرج الخادم ويتركه مفتوحا حتى يعود بما طلب منه .

أنظر إليه إلى رأسه ذى الشعر الخفيف وإلى وجهه الأبيض المكتنز وتدور برأسى هذه الخواطر العجيبة فأجد نفسى ابتسم رغما عنى من هول ما أفعله به فى خيالى . ومرة ضحكت بصوت مسموع .. فرفع رأسه واضطربت عيناه بنظرته الخاصه ونظر إلى قليلا ثم نظر فى الورق أمامه مرة أخرى .

تمنيت لو سأل لماذا أضحك .. ولكنه لم يسأل .. وأقسم انه لو سأل لأخبرته بما أفعله به .

سألته مرة وهو يبدل ملابسه استعداد للنوم : « عبد الجليل » هل كنت شاباً في يوم من الأيام ؟ ..

ورأيته يفغرفاه اندهاشا فسارعت أقول : وهل كنت طفلا ؟؟

قال : لا لقد جننت .. وأنا لا أحب أن أحادث المجانين .. وجذب الغطاء ونام .

وليلتها ظللت أضحك أضحك بصوت عال حتى خفت على نفسي فعلا من الجنون ... فتركت له الغرفة وذهبت إلى غرفة أخرى ونمت .

وأصبحت عادة في كثير من الليالي حين يخرج من غرفة المكتب ويسألني سؤاله التقليدي: أمازلت مستيقظة .. ويسبقني إلى حجرة النوم. أن أظل جالسة مكاني أكمل ما كنت فيه .. ثم أذهب إلى الغرفة الأخرى حين أريد النوم .

ولم يزعجه في كثير أو قليل نومي بعيداً عنه .. ولم يسألني بل تعود على ذلك .. وحتى في المرات القليلة أو النادرة التي كان يريدني فيها كان يقول لي وهو خارج من غرفة المكتب : أريدك قليلا في غرفة النوم .

في أول الأمر كنت أذهب .. وكثيرا ما كنت أتغاضى وكأنني لم أسمع شيئاً .

نحيا معا وكأننا غريبان ... وكأن كلامنا يعيش بمفرده ... وطالما سألت نفسى لماذا تزوج هذا الرجل؟ ولم يكن فى وجودى أية إضافة له ... رجل عنده اكتفاء ذاتى . لماذا أحضر إنساناً آخر ليعيش معه ؟ أقصد ليتواجد معه ؟وقد كان فى غنى عن وجودى أو وجود أى انسان .

* * *

وجاء الطفل ... ومع كل النـاس يزيد الطفل من ارتباط الأبوين إلا فى حالتى أنا ... فقد باعد الطفل بيننا أكثر وأكثر فحتى جلستى المفضلة والتى كنت أراه فيها خارجا من غرفة المكتب ما كنت كثيرا أستطيعها لانشغالى بالطفـــل .

كنت لا أراه إلا على مائدة الغداء وكثيرا ما كان يعتذر عنه فيمر اليوم والاثنان ولا أراه ... تعودت على ذلك ... وجعلت من ابنى شغـــلى الشاغل . وما نجح ابنى فى أن يغير من أبيه شيئا .. أو من طباعه شيئا .

كان يراه قليلا حين أحمله وأقربه منه وقت الغداء فيقبله فى جبينه صامتا أيضا . مرة واحدة تكلم بشأنه يوم ولد .

فقال : نسميه «عبد الجليل» صرخت يصبح اثنين «عبد الجليل» ؟ ! لا يمكن ...

لمعت نظرته القصيرة فى عينيه ولكنى لم أبال وقلت : تريد أن تخلد اسمك مثلا ... أنا لاأجد أى معنى لهذا الاسم المضاعف ثم انى لاأقدر أن أحتمل اثنين «عبد الجليل» فى البيت . قال بهدوء ... لن أجادلك .. سميه كما تشـــائين !

حتى فى هذا الأمر لايريد أن يجادل ... لم يدافع عن وجهة نظره خشية أن يكلفه هذا بعض الكلمات وهو لايريد أن يتكلم .

قلت : أسميه «يوسف» وأقسم أن الاسم جاء فجأة على لسانى ... لم أفكر فى هذا الاسم قبل هذا الوقت انما قفز مرة واحدة الى ذهنى فنطق لسانى . وما كنت حتى أذكر صاحبه منذ مدة طويلة .

قال : على بركة الله .. «يوسف» .

وفجأة امتلأت عيناى بتلك الصورة الجميلة .. صورة «يوسف» الأسمر العريض الصدر . ذى العيون الضاحكة ..

وجدت نفسى ابتسم فى سعادة وكأن هذه الصورة كانت مختزنة فى

نفسي وخرجت فجأة إلى عالم الحقيقة تفرض وجودها .

وتمثل أمام ناظرى « يوسف » بكل جماله .. طويلا عريضا عيناه بلون العسل ... تظهر الضحكة فيهما قبل فمه . . شعره أسود غزير ـ رائعة تلك الصورة .. رائعة حقا .

ولا أدرى كيف أغمضت جفونى كأنى احتضنها بالجفون .. كأنى أحتويها بعينى .. أحسست أن هذه الصورة أجمل ما في حياتى .

كانت قد مرت سنوات لم أذكرها فيها لاهي ولا صاحبها والآن بعد أن رأيتها أمامى بكل هذه الروعة أعتذر لها أعتذر لها فكيف غفلت عن تأملها وما فى حياتى شىء يجالها ؟ انحنيت على صغيرى أقبله وأهمس فى أذنه ليتنى أراك مثله .

شغلنى « يوسف » الصغير بعض الشىء وأقول بعض الشىء لأنه كان طفلا هادئا كأنه ورث الصمت من أبيه ثم أن «عبد الجليل» أحضر لى مربية أجنبية له . وحين سألته ما الداعي لهذه المربية ؟

قال : المرأة الأجنبية شيء آخر هذه ستربيه تربية جيدة .. ستجعل منه رجلا .. الأم المصرية - خاصة إذا كانت فارغة الرأس - ستجعل من ابنها رجلا ثرثارا فارغا لا يحترم النظـــام .

أنا شخصيا ربتني مربية أجنبية بعد وفاة أمي وهي التي غرست في نفسي ما أنا فيه الآن من حب للعمل وحرص على النظام وهدوء في الطبع .. وسرحت في كلماته لا يمكن أن تكون مربية أجنبية أو مصرية هي التي ربته .. لابد وأنها كانت نمطا من الانسان الآلي .. وكأني قد فرحت وهو يتكلم .. ربما كانت المرة الأولى التي يتناقش فيطيل الكلام .. وأنا الصامتة .

قلت له : فليكن .. ولا أدرى ما الذى أصـــابني حتى أتقبل هذا الأمر ببساطة .. ربما كنت قد فقدت حماسي أنا الأخرى لأى شيء .. وكنت فعلا قد اكتسبت الطبيعة الساكنة فما عدت أحب أن أجادل أو أثور أو أغضب فقد تعودت أن أتقبل كل شيء كما هو .. لقد مات الحماس في داخلي أصبحت أنا الأخرى أفضل الصمت عن الكلام .

وعلى كل كان وجود «يوسف» فى حياتى بارقة حياة وحيوية . كنت أداعبه .. ألاعبه ولكن ليس كثيرا لأنى تعودت أن أكون بمفردى أقرأ أو أظل أحملق فى لاشىء فى مكانى المفضل خاصة ون المرأية قد حملت عنى كل العبء .

* * *

— ٣ —

مرت أعوام .. انتهيت من دراستى .. وكبر «يوسف» .. والحياة كما هى ومع الأيام تم التباعد بيننا تماما فقد كنت أنام بمفردى وينام بمفرده ولم يعد يطلبنى وكأنه استراح حتى من هذه اللحظات القصيرة التى كان يقضى فيها حاجته .. وكأن لم تعد به حاجة يقضيها . بل كأنه كان ينتظر أن تصير الأمور إلى هذا الوضع .

قال لى يوم نجاحى وحصولى على الليسانس .. مبروك أظن من الممكن الآن أن تبدئى فى دراسة الحقوق . امتــــلأت نفسى ثورة عليه ولكنى لم أثر بل قلت له بهدوء : لقد مللت الدراسة .. ومللت كل شىء ..

فقال : وهل ستعيشين هكذا فى حياة فارغة ؟

فنظرت اليــه نظرة ربما تشبــه نظرته البغيضة وقلت : وهل عشت أبدا إلا حياة فارغة ؟ وتركته ومضيت .. فقد أصبحت أنا التى أكره الــكلام أكثر منه .

مرت الأعوام باردة ، أقسم أنى من فرط الـــبرودة التى أعيش فيها

أصبحت لا أحس الـدفء أبدا . كنت دائما أحـس قشعريرة في جسدى وكأن جليدا يحيط بى دائما .

ذهبت مرة لزيارة منزلنا وكانت جدتى مريضة جلست بجانبها أتأملها ، وجدتها شاحبة .. لمستها وجدتها باردة الجبين . قلت : آه ياجدتى :

قالت ما بك يا «راوية» .. كأنك شخت قبل الأوان .

قلت : آه ياجدتى .. أحس برودة جسدك في جسدى .

قالت : آه ياحبيبتى أنا أعرف ما بك .. وأكثر ما يؤلمنى احساسى بأنى ذاهبة .. سأذهب يا «راوية» وأنا محزونة عليـك .. يا ابنتى لم تذوق السعـادة .

فزعت من كلماتها ..

قلت : ياجدتى أرجوك أن لا تتركينى أرجوك ابقى فأنا وحيدة . . وحيدة بكل معنى هذه الكلمة .. وجودك فيـــه عزاء لى أنت تفهميننى وتحسين بى .

قالت : ودموع تسيل على خديها : اسمعى ياحبيبتى سأذهب قريبا ولكن خذى منى هذا الكلام .. اذا جاءتك فرصة للسعادة فلا تضيعيها

أبدا .. ليس هناك مايستحق أن تتحملى من أجله أية تضحية . لقد جربت واحتملت مايقرب من عشر سنوات وها أنت تعيشين ميتة لوجاءتك الفرصة ياحبيبتى للخلاص من « عبد الجليل » والارتباط بزوج آخر يسعدك فلا ترددى .

قلت لها : أية فرصة ياجدتى ؟ لقد ماتت فى نفسى الرغبات .. لقد أصبحت لاأصلح لشىء ولا أصلح لأحد .. أنا الميـــت الحى ياجدتى.
قالت : لا . لابد أن تعيشى .. أنا لاأريد أن أجعلك تتمردين .. ولكنى أقول لو جاءتك الفرصة للحياة تشبثى بها وليكن مايكون .. وخذى هذا مفتاح جنتى فى دمياط احتفظى به فستكون لك سأوصى لك بهـــا بعد وفاتى فأنت تحبينها . وخذى هذا أيضا أنه مصاغى الضخم الذى احتفظ به طيلة هذا العمر . لن أجد غيرك أهبه إياه وهذه أوراق رصيدى فى البنك . كله لك .سأكتب وصية أوصى لك بكل هذا حتى لايشاركك أحد فيه فأنت الوحيدة التى لم تتمع بحياتها بعد . ولعل فى هـــذا سندا لك . ومعاونة على تغيير نمـط حياتك هذه ...... وإذا دخلت الجنـة فترحمى على روحى ... واذكرينى .

احتضنتها ... قبلتها . عجبت لها كيف تحمل في جنباتها مثل هذا الحس! هذه امرأة من جيـــل قديم تربت وعاشت على الطاعة والاحتمال وتبعيتها للرجل فالمرأة مخلوق مهمته فقط أسعاد الرجل فمن أين لها بهذا الحس وهذا الفهـم ؟!

* * *

وفي يوم أسود جاءني الناعي ينعي إلى جدتي . آه ياحبيبتي ... ياقطرة الحنان في صحراء حياتي . كان رحيلك حزناً كبيراً في عمري . كنت الروح الوحيد الذي أجـد فيه سلوى لروحي .. كنت لاتستطعين شيئاً لي ولكن يكفي احساسك بي ... أمي نفسها قصرت عواطفها نحوي عن ادراك ما أعانيه . أنت فقط كنت متنفسي الوحيد .

ظللت أياما في منزلنا أبكي رحيلها .. أجلس في مكانها ألتف بشالها... أتذكر جنتها وأتمنى لو أسكنها الله جنة أخرى من عنده .

وبعد هذه الأيام عدت إلى البيت . ولا أدري كيف عدت بشعور مختلف عدت ولكني لم أجد معنى لهـذه العودة . بركان تفجر في نفسي . ورفض هائل يملأ صدري وفي داخلي ألف صوت وصوت يقول اهدمي هذه الحياة

لايمكن أن أعيش باقى عمرى فى هذا القبر . لقد تمثـل لى هذا البيت الفخم وكأنه قبر .. لم أجد مبررا واحدا يبقينى فيه .

ابنى ... ابنى سيعيش كما قدر له أبوه . حتى ابنى لايشعر بى ... حتى صلتى به لم تكن كصلة أى أم بابنها أحست كأنى شىء زائد فى حياته . أبوه يعده ليكون مثله . الصبى فيه من طبيعة أبيه كثير . وهذه المربية تقوم عليه ... وهؤلاء الخدم يقومون على المنزل . . وأنا لامكان لى .

كان المفروض أن أقوم على وجود الزوج بعد أن حمـــل هؤلاء كل التبعات عنى ... ولكن أين هو ؟ ... أين رجـــلى الذى اتفرغ له وأجعـل منه شغلا شاغلالى ؟ لايوجد ... لاأحـد ... انما فراغ وبرودة وجليد .

كأن موت جدتى قد فجر فى نفسى صحوة هائلة ... كأن موتها قد أعاد إلى روحى التى خمـدت من زمن . فجأة استيقظت كل الرغبات . فجأة تفجرت فى كيانى رغبة الاحساس بالحياة . أنا مخلوق حى يجب أن أحيا... أن أعيش .

لاأريد شيئا ... لم أفكر فى أحد . فى رجـل آخر مثلا أو فى الزواج

مرة أخرى . فقط لا أريد هذا الرجل فى حياتى . أريد أن يختفى هذا الذى يرمز بسكونه للموت . أريد أن ابتره من حياتى لأحيا بمفردى .

أتنفس . أجرى . ألعب . أستدفىء بالشمس أرمى بنفسى وسط الضجيج أسير فى الطرقات يتخبطنى الناس . أعرق . أحس بلفح الشمس ... يتغير الفصول . أكره هذه الجدران . هذا البيت الصامت الغارق فى الصمت المقفل الشبابيك أبدا . الخافت الضوء دائما . أكره هذا السكون أكره هذا الركود . أريد ضوءا ... أريد شمسا ...

جريت إلى النوافـــذ افتحها . أدفعها كأنى أريد كسرها . دخلت الشمس . ملأ الضوء ارجاء المكان . جريت إلى الراديو وجدت موسيقى صاخبة جماعتها ترتفع فى البيت حتى بدا وكأن كل شىء يسمعها ويرقص معها أخذت أنا الأخرى أرقص وأنتقل من غرفة إلى أخرى . وأضحك وألف وألف وأدور وأنا فاتحة ذراعى وعليهما شال جدتى تشتبك خيوطه بأشياء صغيرة وضعت للزينة . فتهوى ... وتنكسر ... وأنا فى نشوة غريبة ماعرفتها أبدا ......

وفجأة صمتت الموسيقى وهجم صمت مخيف . أفقت . نظرت . وجدت الوجه الكريه والنظرة السخيفة فى عينيه . حدقت به فى تحد .

قال : هل أنت فى حداد ؟! وما كل هذه الفوضى وتلفت حوله فى اشمئزاز .

قلت له وملء نفسى التحدى : « عبد الجليل » . طلقنى .

وسادت فترة صمت طويلة لم أسمع فيها غير أنفاسى المضطربة . وصرخة صغيرة أنطلقت من « عبد الجليل » بعد كلمتى مباشرة ... وتصلبت ملامحه على تعبير الدهشة والذهول وظل هكذا بضع لحظات تمالك فيها نفسه بجهد واضح ثم قال : اتبعينى إلى المكتب .

وسار فى خطوات بطيئة كأنه كان يبذل فيها جهدا كبيرا ... وبدا لى ظهره وكأنه يحمل فوقه أعباء ثقيلة . وتركته يسير إلى أن بلغ حجرة المكتب ثم أسرعت اليه والعجيب أنى وجدت خطواتى سريعة أقرب ماتكون إلى القفز . وأحسست أنى تخففت من كل ماتحملته طوال عشر سنين ... وكأنى ألقيت به فوق ظهر « عبد الجليل » فقد سار هو ثقيلا

متباطئا وسرت أنا خفيفة أكاد أن أطير من فرط إحساسى بالتحرر .

وعجبت . أبمجرد نطقى بهذه الكلمة أعطانى كل هذا الاحساس بالحيوية والخفة ؟ .

ووصلت حجرة المكتب فوجدته جالسا على كرسيه أمام المكتب تماما كما تعودت أن أراه حين كان يعمل فى القضايا . ولا أدرى كيف ملأ نفسى شعور بالنشوة . وأحسست انى سعيدة كأنى قد تحررت منه، الفعل. لم أستطيع أن أجلس على الكرسى أمامه كأنى صاحبة قضية جاءت لاستشارة المحامى الكبير . فجلست على مسند الفوتى مما زاد دهشة ، عبد الجليل ، ... ونظر إلى ووجدنى أنا الأخرى أثبت نظراتى فيه ربما لأول مرة منذ سنوات طويلة لقد بدا وجهه مصفرا مضطربا وعلى جبينه قطرات عرق أكاد أحس برودتها . ولم تأخذنى شفقة به ولا رحمة . لم تهتز فى نفسى خلجة من أجله كأن لم تربطنى به سنوات عشر . كأنى لا أعرفه .

ملأ نفسى شعور حاد بالتحدى . هذا الرجل لم يصل أبدا إلى داخلى لم يلمس أعماقى ... لم يحرك فى أى شعور بالأنوثة . كان دائما شيئا

منفصلا عنى . لذلك لا أشعر له الآن بأي احساس حتى ولو بالشفقة ...

وبعد فترة صمت قال : ماذا قلت يا « راوية » ؟

كانت هذه مرة من المرات القليلة النادرة التى نطق فيها باسمى .

قلت فى استخفاف : قلت الذي سمعته .

قال : وإذا سألت عن الأسباب .

قلت بلا أسباب .

قال : آه مجرد خاطر جنونى خطر فى بالك فنطقت به .

قلت : أبدا ليس بالخاطر الجنونى ولكنه صوت أعماق صوت ضميرى .

قال : وماذا ينقصك ؟

قلت : « عبد الجليل » أرجوك أنا لم أتناقش معك فى حياتى وأنا لا أريد الآن أن أتناقش معك . هذا الأمر لا يقبل المناقشة أنا أريد الانفصال عنك وهذا يكفى .

قال إذن قررت بمفردك ... وهذا الأمر يخصنا نحن الاثنين معا فكان من الواجب أن نقرره معا .

قلت : لم يكن هناك أي أمر يخصنا نحن الاثنين أبدا ... دائما شيء يخصك بمفردك ... وشيء يخصنى بمفردي . ثم أن بعدي عنك لن يغير فى حياتك شيئا ... كما لم يغير قربي منك شيئا فى حياتك وأرجوك أنا لاأريد أن أثير أشجانى وأعدد لك أشياء ماأحب أن أذكرها . أشياء سأنساها ... أقسم لك انى سأنسى تماماهذه السنوات العشر التىعشتها معك... سأبترها من حياتى كأنها لم تكن . سأبدأ من جديد كأنى لم أتزوج ولم أعش فى هذا القبر عشر سنين.

قال : وابنك هل نسيته ؟ ... إذا أصررت على جنونك هذا فلن تريه أبدا . . لن أسلمه لأم طائشة تفسد عقليته لن أسمح لك بأن تفسدى عقله بأفكارك المسمومة هـذه .

قلت له : سأتركه لك تنشئه كما تريد . أهذه الورقة التى ظننتها رابحة

فى يدك ؟ لقد جعلت منى انسانة لاتصلح لشىء ... انسانة ميتة . ولابد أن أتركك لأعود لدنيا الأحياء .

قال : إذن لن أطلقك وأذهبى ... لن أطلقك لامنعك من ارتكاب أى حماقة فأنت أم إبنى على أى حال . ولا أرضى لأم ابنى أن ترتبط برجل آخر .. لايمكن أن ينشأ بنى ويرى أمه ترتبط برجل آخر وأنا مازلت على قيد الحياة . سأبقيك هكذا لازواج ولاطلاق .

قلت : هذا هو الوضع الذى تعودت عليه ... فلم أكن أبدا متزوجة ... ولايهمنى أن أكون مطلقة ... فقط أريد أن أبعدعنك أن تختفى من حياتى .

اضطربت ملامح وجهه بنظرته الكريهة وقال هامسا : لو أنك مت . .

فنهضت ومضيت إلى غرفـــة ابنى واستقبلتنى المربية البـاردة الوجه وقالت فى صرامة : أنه نائم ! فنحيتها جانبا بدون أن أنظر اليهـا ... وأنحنيت عليه أقبله ...

وخرجت الى غرفتى وجمعت بعض أشيائى ومضيت وأنا خارجه نظرت فوجدته كما تركته جالسا أمام المكتب وكأنه تجمد فى مكانه فأسرعت الخطى وأغلقت الباب خلفى وكأنى قطعت صلتى بهذا المنزل الى الأبد .

* * *

— ٤ —

لم أفكر أن أذهب إلى بيت والدى أنا أعرف ماسوف يقوله . على الأقل سيزيد من تعب أعصابى التى أصبح من العسير على السيطرة عليها إلا بالمهدئات وأصبح استعمال الحبوب المنومة والمهدئة عاده ثابتة لا أستطيع الاستغناء عنها . ولست مستعدة أن أخوض معه فى مناقشات أعرف مقدماً أنه لن ينصفنى فيها أبداً .

لماذا ألجأ إلى والدى أو غيره لقد نويت الاستقلال لقد قررت أن أعيش لنفسى و بعد ذلك على الدنيا السلام . لقد جربت .. وعشت تابعة للاخرين وأرائهم .. عشت كما أراد لى الآخرون أن أعيش .. فماذا جنيت ؟ لاشيء .

ضاع من عمرى عشر سنين و لم يدرك ذلك أحد .. لم يحس أحد بعذابى .. عندما كانت تقتل على غرفتى من الناس يحس بى ؟ كل هؤلاء الذين أغرقونى بما يصح وبما لا يصح هل شهد أحد منهم معاناتى ؟ هل تألم من أجلى أحد ؟ لماذا إذن أحرص على أن أرضيهم على حساب نفسى ؟

من الآن فصاعداً نفسى فقط . سأستقل . سأعمل . سيكون لى سكنى الخاص ولن أدع أحدا يتحكم فى مصيرى مد اليوم .

كنت أعرف بيتاً للمغتربات فذهبت وأستأجرت غرفة به خلوت فيها إلى نفسى . لقد ظللت ساعات طولة وأنا مستلقية فوق الفراش . . . شاردة أحاول أن أستعيد نفسى وأرتب أفكارى . ولأول مرة أحس بشخصى . . أنا الآن فقط يجب أن أقرر لنفسى ماذا يجب على أن أفعله . أحسست بنفسى بكيانى بأرادتى . . . أحسست أن هناك تجارب يجب على أن أخوضها سأبدأ من جديد . . لن أعتبر ما مر بى تجربة بل سأعتبرها فترة ميتة من حياتى .

ياحبيبتى ياجدتى ليتك كنت حية لتشهدى ميـــلادى من جديد . لو كنت موجودة لأخذتك وعشنا معاً فأنت الوحيدة التى كنت تقدرين ما أنا فيه .

وتذكرت كلماتها الأخيرة وتمثلت لى جدتى بوجهها الطيب فاحتضنت صورتها بجفونى .

ثم قمت وارتديت ثوباً مرحاً تميل ألوانه إلى اللون الوردى .. وأطلقت شعرى وتزينت ونظرت لصورتى خيل إلى أنى عدت إلى العشرين .. شكلى الآن لا يدل على أنى أبلغ الثلاثين أبداً . كنت وأنا فى بيت « عبد الجليل » أنظر لنفسى فى المرآة أجد كأنى تخطيت مرحلة الشباب .. العيون ذابلة الوجه باهت حتى شعرى لم أكن أتركه على كتفى . كأن فى تهدله حول كتفى صورة للمرح لا أحسها لذلك كنت أجمعه كله خلف رأسى .. لكن الآن أطلقته مرحاً على كتفى وكأنه كان يشاركنى فرحتى فانطلق مرحاً يحيط بوجهى يكسبنى جمالا غاب عن ناظرى طويلا .

خرجت قاصدة صديقتى « هدى » وهى الصديقة الوحيدة التى كانت تعرف حقيقة حياتى مع « عبد الجليل » وكانت ترثى لحالى ويحزنها أمرى وهى التى أطلقت على لقب الأرملة . لكنها لم تكن تعرف أنى غادرت البيت إلى غير رجعـــة .

وكنت أعلم أن زوجها مسافر إلى الخارج من مدة .. وأعرف أنى سأجدها مع طفليها فى المنزل .

بهتت « هدى » من منظرى وقالت : «راوية»غير معقول .. كأنك
يوم عرسك ماذا حدث ؟ .. شكلك ينبىء أن هناك أحداثاً . منذ عمر
لم أزك بهذه الصورة أما زلت بكل هذا الجمال ؟

وجرت على لسانها أسئلة كثيرة وأنا أنظر إليها ضاحكة وقلت :
— أهدئى .. لقد صرت اليوم فقط أحمل لقب الأرملة بحق .

قالت صارخة : أيه .. « عبدالجليل » مات أم قتلتيه ؟

فضحكت من أعماقي وقلت لها لا هذا ولا ذاك .. لقد طلقته .

فضحكت وقالت : والله « برافو » كنت أخاف أن تقتليه هكذا
أفضل بكثير .

حكيت لها التفاصيل فقالت :

— هذه كانت النهاية المتوقعة لكن أبنك يا « راوية » ؟

قلت لها : أبنى سيكبر يوماً وسيفهم وسيقدر ظروفى ثم أنه مع أبيه

أفضل فقد تركنى « عبد الجليل » وأنا لا أصلح لشيء . لقد كنت أعيش مع إبنى و « عبد الجليل » لا يعتقد أنى أصلح لتربيته وأحضر له المربية .

وقد ترسخ فى ذهنى أني لا أصلح لشيء بالفعل .. يلزمنى فترة طويلة حتى أستعيد نفسى وأعرف من أنا وأعيد تركيب شخصيتى التى تفككت فى بيت « عبد الجليل » .

وصممت « هدى » أن أبقى معها بعض أيام خاصة وأنها كانت تقيم فى فيلا أنيقة وحولها حديقة بديعة وكان زوجها غائباً وتحس بالوحدة فى منزلها الكبير .

وقد كان وبقيت مع « هدى » أياماً طويلة كنا نقضى وقتنا فى الثرثرة والأسترخاء فى الحديقة .. ومداعبة الأطفال .. ورياضة المشى .

نسيت أن أقول انى أتصلت بيت والدى وأخبرته بما كان فى صيغة أخبارية ولم أنتظر منه تعليقاً بل قلت له فيما بعد سأتصل بكم وأحضر لمناقشة هذه الأمور ولكنى الآن فى أجازة من الزواج ولن ادع احداً يعكر صفو

هذه الأجازة .. وتركته على سماعة التليفون وأنا أكاد أتصور صورة الذهول على وجهه ..

وبعد أن وضعت السماعة نسيتهم تماماً ..

ألم أقل انى لم أعد أهتم بأحد إلا نفسى. أنا حرة ومالكة زمام أموري. ولا لأحد من سيطرة على .

وحان وقت عودة زوج « هدى » فتركت الفيلا ذاهبة إلى بيت المغتربات وأن كنت يومياً أذهب لزيارتها .

وبعد أيام من وصول زوجها أرادت أن تقيم حفلا ساهراً بمناسبة عودته وبالطبع بقيت معها يومين للاعداد لهذا الحفل الكبير وقد بذلت أنا وهدى جهداً كبيراً فى تزين المنزل والحديقة وإعداد الطعام .

وكانت « هدى » تمزح معي وتقول : ربما تجدين فى هذا الحفل عريساً لك يا « راوية » ..

فعندنا مدعون من أفضل الناس وأختاري كما تشائين . كنت أضحك من

كلامها وأقول أناسية أنت أن « عبد الجليل » أقسم أن لا يطلق .

تقول : سنرى .. هذا من النوع الذى لايطيق أن تظل إمرأته حاملة لأسمه وهي تعيش على هواها .. ضرورى سيطـــلق حين يجد أمك جادة فى عزمك.

قلت لها : « عبد الجليل » على ثقة من أننى لن أكون على هواى أبداً . فقد تعود أن يرانى جثة هامدة لا حياة فيها . كلما يخشاه أن أرتبط برجل غيرة بالزواج فيحرج أمام أبنه إذ كيف أتركه هو « عبد الجليل » بك وأرتبط برجل آخر ؟ .

وفى ليلة الحفلة لا أدرى لـماذا ستولى على خاطر شيطانى أن أكون أجمل الموجودات .. قلت لنفسى ليس معى رجل ولا بد أنى سأكون محط أنظار الرجال .. ولا بد أن النساء سيرمينني كل واحدة بكلمة .. والله لأكون بحق كما يتصورننى هؤلاء النسوة .. سأجعل كل واحدة تضع يدها على قلبها حين ينظر إلى زوجها .

فتشت فى ثيابى .. ثيابى التى كنت أعددتها للزواج ولم أرتد معظمها.

فأين كنت أذهب أنا و « عبد الجليل » ؟ ووجدت أحد الأثواب الرائعة بالفعل كنت لم أرتده أبداً . أبيض اللون ينسدل على جسدى بأحكام مغر . مفتوح الصدر .

كنت أبدو فيه كعروس ولون بشرتى البرونزى يشكل مع اللون الأبيض صورة جذابة رائعة وشعرى منسدل بمرح .. وتزينت وتعطرت كما لم أفعل من قبل .. وبالفعل لم أفعل ذلك أبداً . فلم يعطنى « عبد الجليل » أى فرصة لأظهر محاسنى كامرأة ..

وما كنت أتصور نفسى بهذا الجمال .. أو كنت قد نسيت أن لى شكلا جميلا . أقسم لو رآنى « عبد الجليل » الآن ما عرفنى . فلم يشاهدنى هكذا أبداً .

حين رأتنى « هدى » صرخت وقالت :

ـ لو رآك زوجك لندم عمره كله على أنه أضاعك. أنت خطر « ياراوية » الآن على الزوجات الموجودات فى الحفل .

قلت لها : عشر سنين وأنا مدفونة « ياهدى » .. أتركينى مرة

أحس أنى مخلوق آدمى . أتركينى مرة أستدفىء بنظـرة الأعجاب فى عين الرجل . ألا تعرفين أن نظرة الأعجاب فى عين رجل تدفىء قلب المرأه ؟ أنت أمرأة وتعرفين طبعاً .. لقد ظللت عشر سنوات أنتظر أن أجدها مرة فى عينى زوجى ولكن دون جدوى . فليس كثيراً على الآن أن أراها فى عيون آخرين .. فقط لأدفىء بها قلبى ..

ولتطمئن كل زوجة ستحضر الحفل فليس لى فى رجلها أى غاية لأننى نسيت الرجال .. نسيت أن فى الكون مخلوقات تدعى رجالا .. لقد كرهنى « عبد الجليل » فى كل الرجال . اليوم أرتدى وأتزين هكذا فقط لأحس بنفسى .. أحس وجودى . أحس وجودى أنـا من خـلال عيون الآخرين أفهمت .. ؟ .

وابتدأ المدعوون يتوافدون على الفيلا .. وأخذت « هدى » تقدمنى للقادمين .. مدام « راويـة » . وأنـا أحس الضيوف تحيط بى نظرات الأعجاب .

وأعـترف أنى كنت سعيدة بها ولا أدرى أن كان حقيقـة أم خيل

إلى ان الجميع ينظرون لى رجالا ونساء ! . وكنت أحس فى نفسى خفة ونشاطا لم أعهدها منذ زمن .

كنت أتحرك وأتنقل بين المدعوين بحيوية فائقة .

قالت إحدى النساء : صديقتك هذه لم نرها يا « هدى » فى سهراتنا أبداً ... هي مفاجأة لنا اليوم .

أحتارت « هدى » بماذا ترد ولكنى حملت عنها عبء الرد وقلت للسيدة:
— لقد كنت فى حداد طويل .. لذلك كنت لا أشارك فى سهراتكم .

صاح أحد الحاضرين : أرملة اذن .

قلت له : بالضبط ... أرملة .

ورأيت « هدى » تحاول أن تكتم ضحكها واقتربت منى وأخذتنى من يدى وابتعدت بى عنهم وقالت :
— اراك سعيدة بلقب الأرملة ... ستثيرين أكثر من معركة فى أكثر من بيت بعد انتهاء السهرة .

ضحكت وأنا أقول لها : وما ذنبى أنا .

وكنا نضحك معاً حين رأيت فجأة رجلا عنـــد المدخل يتقدم بمفرده .. رأيته أسمر الوجه .. ضاحك العينين . طويلا عريضاً حركت رؤيته تلك الصورة الغافية فى أعماق النفس .. يا إلهى .. أيمكن أيكون هذا « يوسف » ؟ محال ..

بهذه الصورة ساكنة هناك فى داخل النفس .. فى دنيا خيالى . فكيف تتجسد الآن لتصير حقيقة ؟

أقترب أكثر وفى عينيه وعلى شفتيه ابتسامة .

رآنى وأنا أثبت عينى فيه .. أبتسم أكثر ولكن يبدو عليه أنه لم يعرفنى .. من المؤكد لم يعرفنى فقد تركنى صبية صغيرة وأثنى عشرة سنة من العمر .

وحين تقدمت « هدى » تعرفنى إليه قائلة : مادام « راوية فاضل » صمتت أبتسامته قليلا كأن الاسم نقر بخفة على جدار الذاكرة .. لكنه عاد إلى أبتسامته العريضة وكأنه لم يتذكر وحيانى بانحناءة وأدار لى ظهره وأنتقل لتحية بعض الحاضرين .

ثبت فى مكانى .وعلى الرغم من أنه ابتعد إلا انى ظللت ساكنة وأنا أحملق فى ظهره .

دهشت « هدى » وقالت : ما بك يا « راوية » ؟ .. « راوة » .. أتعرفينه ؟

قلت : من ؟

قالت : « يوسف صبرى » ..

رددت فى صوت خفيض « يوسف صبرى » ..

قالت : أجل أتعرفينه ؟
قلت نعم أعرفه .
قالت ولكنه لا يبدو عليه أنه يعرفك .

قلت : لكن أنا أعرفه .. طول عمري أعرفه .

وتركتها وتابعته .. ذهبت خلفه وظللت ساكنة أرقبه عن قرب وهو مشغول لتحدث مع زوج « هدي » والحاضرين .

وإستدار .. وقعت عيناه الضاحكتان علي من جديد . وبدا وكأن

تعبيراً من الدهشة ساد ملامحه ولكنه أبتسم ورفع كأسه يحيني ..

ولكنى لم أرد وعيناى مفتوحتان بكل أنتباه مركز فيه . فهز كتفيه وأستدار مرة أخرى .

ولكن عيناى لم تغفلا عنه . وكأن ظهره ضاق بمراقبتى فرأيته يتجه إلى الحديقة ويختفى عن ناظرى ولكنى تابعته إلى الحديقه فوجدته جالساً على حرف السور يدخن سيجارته بهدوء ويرشف من كأسه بهدوء أكثر .

وتجمدت فى مكانى أتأمله وكثير من الصور تمر بذهنى وخيالى أراه وهو يحملنى ... وهو يجرى ورائى فى حديقة بيتهم . وهو يحملنى فوق ظهره ثم يرمينى فى مياة البحر فى رأس البر ... ثم وهو يصعد خلفى على سلم الجنه ويلتقطنى بين يديه ليصعد بى ثم يوم زفافه وشكله الأسطورى فى ذلك اليوم وتقديمه لى إلى عروسه على أنى حبه الأول .. وقبلاته لى ومحاولتى أخفاء وجهى عنه .. وأشياء كثيرة وكثيرة .

وبدا لى وهو جالس فى جلسته هذه كأنه تمثال .. تمثال جميل للرجولة .. فلو أرادوا صنع تمثال يعبر عن الرجولة ما وجدوا أجمل من هذا الكائن أمامى .

وأقتربت منه مسحورة .. كأنى مسحورة بالفعل . أردت أن ألمسة لأتأكد من أنة كائن بشري وليس إلهاً أو أسطورة أو تمثالا .

أقتربت حتى كدت أن ألمسة . فألتفت ناحيتى ولم يظهر على وجهه أي أثر للدهشة أو التعجب هذه المرة .. أنما أمتلات عيناه بضحكة ودود رائعة ومد لى يده كأنه يريد أن أقترب أكثر وأكثر ..

ونظرت إلى راحة يده الممدودة .. ووجدتنى لا شعوريا أضع كفى الاثنين فيها .

قبض على كفى وجذبنى بلطف حتى كدت أن التصـــق به وهو يتأملنى . ثم قال هامساً بصوت عميق : من أنت ؟ ..

ولم أرد .. لم أجد صوتاً لأجيبه به إنما أسدلت جفونى وفتحتها فى ضمة طويلة كأنى أضمة بها فى شوق طويل .

أعاد الســـؤال : من أنت ؟ ..

بجهد أستخرجت صوتى لأقول : أنا أعرفك .. قال : منذ متى ؟

قلت : طول عمرى

فشدد قبضتة على كفى وقال : وأنا .. هل أعرفك :

قلت : نعم .. « راوية فاضل » من دمياط .. عقد حاجبيه ومرت بوجهه تعبيرات رائعة مزيج من الدهشة والحنين والألفة والود طال تأمله لى بكل هذه التعبيرات ثم كان أن جذبنى أكثر حتى التصقت به وترك كأسه وأحاط وجهى بيديه يتحسس ملامحى بحنو عجيب وأنا مبهوتة مشدودة إليه كأنى مسحورة به .. طالت رحلة نظراته على وجهى .. واقترب حتى أحسست نفسى أنصهر بأنفاسه الحارة .. ثم أستراحت شفاهه فوق شفتى فى قبلة طويلة .. طويلة . أمتص فيها كل حرمان عشر سنوات وبعد مدة أبعد وجهه عنى قليلا وقال : إذن .. فأنا أيضاً أعرفك طول عمرى .

لا أدرى كيف استكنت بين شفتيه . لقد كنت أقاومه وأنا صغيرة .. أما الآن فقد أحسست أن هذا كان الشىء الطبيعى الذى أنتظره .. لو لم يقبلنى هو لقبلته أنا تعبيراً عن الفرحة باللقاء .. وأرضاء لشوق طويل لرؤياه .. وأعتذاراً عن مقاومتى له وأنا أبنة الثانية عشرة .

لم أنتبه أنا بعد هذه القبلة إلى أن حولنا ناساً .. لم أنتبه إلى ما يجب وإلى مالا يجب . كنت كما قلت كالمسحورة . أما هو فقد أنتبه بعض الشىء وقال وهو يجلسنى بجانبه على السور : ياآلهى .. كيف نسيت نفسى بهذا الشكل .. نحن فى

بيت الناس ولكني لم أستطع .. لم أستطع أن أمنع نفسي .. أنت «راوية» .. يالهي أهكذا تمر الأيام والسنون ؟ كأنك جزء غائب مني عاد إلى الآن وبعد طول انتظار .آه ياصغيرتي ..

ما كل هذا الحسن ؟ وأين كنت كل هذه السنين ؟..

هو يتكلم وأنا صامتة أتأمله ..انه هو كما أعرفه إلا أنه تقدم في العمر قليلا تقدما لم يغيره كثيراً.. اللهم إلا أن ملامحه ازدادت رجولة وخشونة . لقد أصبح رجلا بكل ما في هذه الكلمة من معان . . كأن السنين لم تمر به إلا لتضفي على وجهه مزيداً من الاشراق والنضج . . مازلت مشدوهة به أتأمله وأتأمله حتى لم أستطع أن أسيطر على يدي حين أمتدت لتلمس وجهه..تركني ألمسه وعيونه تضحك..مازلت ضحكة عيونه أروع ضحكة أشاهدها!ثم أخذ يدي وأخذ يقبلها أصبعاً أصبعاً وظفراً ظفراً وأنا ذاهلة .. حتى سمعت صوت «هدى» تناديني باحثة عني .

حملني من فوق السور ليضعني أمامه وقال :

ـــ لابد أن نذهب إليهم .. الناس لايقدرون مانحن فيه هيا إذهبي ثم أتبعك أنا ..

تشبثت به كأنى أخشى أن يكون خيالا ويتوارى قلت :
ـ لا نذهب معاً .

قال والضحكة تملأ عينيه : نذهب معاً .

ودخلنا إلى الناس فسمعت موسيقى ناعمة والبعض يرقص على نغماتها .. وبدون أن أتكلم وجدته يحيط خاصري ويلف بى مع النغم .. والتصقت به .. كانت هذه هي المرة الأولى التى أراقص رجلا فى حياتى .. لم أرقص منذ أن كنت أرقص مع صديقات المدرسة على الاسطوانات .

وكنت كمن يحلم ، موسيقى خافتة .. ورجل يحتضننى ويراقصنى .. ورجل .. أي رجل ؟ رجل الحلم والخيال بالنسبة لى .

التصقت به أكثر وأغمضت عينى وأسندت رأسى على كتفه .. وأحتوانى فى صدره .. فلم أعد أحس سوي أنى أحلق فوق السحاب .. ويسرى فى أوصالى ما يشبه الخدر . كان كأنه يحملنى ويطير بى فوق النغم مر بيده على شعرى برفق ففتحت عيونى على وجهه الأسمر الجميل وغرقت عيناي فى عينيه .. ولم أقو على أن أبعد عيونى عنه حتى أفقت على أنقطاع الموسيقى وصوت زوج « هدي » يقول : تفضلوا إلى البوفيه .



أسرع الناس من حولنا وما زال يحتضن كلانا الآخر .. ثم لم نجد بداً من أن نبتعد عن بعضنا . وسألني : أتأكلين ؟

قلت : لا .. وأنت ؟

قال : لا أريد .

وسحبني من يدي إلى الحديقة .

أجلسني على السور وظل واقفاً بجانبي ملتصقا بي قال :

— كيف كانت رحلتك طيلة هذه السنوات يا « راوية » ؟

قلت سأحكي لك .. ولكن قل لي أنت أولا أين زوجتك ؟

كنت أريد أن أعرف عنه كل شيء .. خاصة وإنه أتى الحفل وحيداً .. وكان معظم الرجال في صحبة زوجاتهم . ولا أدري لماذا كنت متلهفة كنت أريد أن أعرف لماذا أتى وحيدا

قال : زوجتي في لندن مع إبننا .. أنا أقيم بصفة دائمة في لندن وآتي كل مدة لأزور القاهرة والأهل وأنجز بعض الأعمال .. وأحياناً أصطحبها معي .. ولكن هذه الأجازة أتيت وحيداً كنوع من التغيير .

فسألت : وهل أنت سعيد في حياتك مع زوجتك ؟

قال : لا بأس .. هي زوجة لا بأس بها وحياتنا كأي حياة زوجيه عادية تمر فيها الأيام متشابهة يخفف من طباطئها وجود إبنى « عاصم » .. وكلما تجمع الملل على نفسى سافرت هنا أو هناك وكان نصيبي من هذه السفرة أن ألقاك .. ثم تنهد وقال :

— وأنت ياصغيرتى .. كيف كانت حياتك ؟ ولماذا أنت هنا بمفردك ألم تتزوجى بعد ؟ ..

ووجدت دموعاً تملا عينى وتنساب فى هدوء على وجنتى .. أحسست انى أريد أن أبكى .. وأبكى .. أحسست أنى أريد أن أدفن رأسى فى صدره .. أن أوسد قلبى المرهق راحتيه . أحسست أنى أريد أن أبكى عمري ... أبكى شبابى .. ماذا سأحكى له ؟ إن حرمانى الطويل يتجمع كشىء يريد أن يسكب من صدري .ما أحسست دفئاً فى حياتى كالذي أحسه الآن وهو يمد يده يمسح دموعى . ولم يسأل .. إنما يمسح دموعى وقد إكتسى وجهه بكل أحاسيس الرحمة والعطف والود.

فتحت ستره ورميت نفسى على صدره .. أحتوانى فى سكون وظل يربت يده على رأسى ويمسح على شعرى حتى هدأت .. ولا أدري كم بقيت .. حتى أنى أحسست نعاساً خفيفاً يثقل رأسى . والعجيب أنى غفوت بالفعل نمت لأول مرة وأنا أسند رأسى على صدر إنسان ! ! ..

بالحياة الجفاف التى كنت أحياها !! أليس « عبد الجليل » رجلا كهذا .. ألم يكن زوجى لماذا لم يشعرنى مرة بمثل هذا الحنان .. أو بمثل هذا الدفء ؟ .

أنى أستكين على صدره ودفء الدنيا كله يحيط بى .. ولا أدري كم من الوقت مر علينا .. ولم أفق إلا على صوته الهادىء يقول :«راوية» .. يبدو أن المدعوين قد أخذوا فى الأنصراف .. ولا أدري ماذا سأفعل .. هل على أن أتركك الآن ؟ ..

أنتبهت .. أنزعجت من فكرة تركه لى . ولكن السكون المخيم خاصة بعد إنصراف معظم الضيوف أكد لى أنه لابد من فراق .

قلت : على أن أبيت هذه الليلة هنا حيث أنه لا يليق أن أنصرف الآن فى هذا الوقت المتأخر .. أ أراك غداً ؟

قال : نعم أراك غداً .

وأتفقنا .. وضمنى ضمه طويلة وأتجهنا إلى داخل المنزل حيث وجدنا

« هدي » وزوجها في وداع آخر المدعوين فحياها « يوسف » وقال له زوج « هدي » :

— أجازتك هذه المرة ستكون أجازة بحق أليس كذلك ؟
وضحكا وودعنا وقد كسا وجهه تعبير بالأشفاق من هذا الفراق الاضطراري وخرج .

فحييت « هدي » وزوجها تحية المساء وأسرعت الخطى للدور العلوي لأنام ولكن « هدي » تابعتنى ودخلت خلفى غرفة النوم وهي تقول : ما الخبر يا « راوية » أهذا يعقل من أول مرة تتلاقيان يصير التعلق بهذا الشكل لقد كنت غائبة عن الحفل تماماً .. كأنك كنت في عالم آخر .. هل يعقل أن تكون العلاقة بينكما وطيدة بهذا الشكل وهو يقيم في لندن ؟

قلت ؟قد أخبرتك إنى أعرفه طول عمري .. أقصد منذا هذا العمر الذي تترسب فيه الأحلام والأوهام.

لقد كان « يوسف» أحلى صورة فى خيالى الطفل المراهق .. وتزوج ورحل .. ولكنى كنت أعود لصورته كلما طافت بى الأحلام أو كلما ملأنى الحرمان ..أو هفت نفسي لصورة جميلة تخفف عنى قبح الواقع .

قالت : لكن هذا رجل متزوج .

قلت : ومن أخبرك أنى أريد أن أتزوجه ؟ . . لقد كرهت الزواج والمتزوجين .

قالت : ولكن المفروض أن تبحثى لك عن زوج .

قلت : أسمعى يا « هدى » أنا عندى زوج .. إذن فأنا لا أريد زوجا .. إنما أريد حنانا . . أريد دفئا . . لن أقيس الرجل بهذه المقاييس المعيارية .. وهذا . . جمعتنى به مشاعر متعددة . . لقد وجدت عنده فى هذه المدة البسيطة حنانا ما أحسسته فى كل مامضى من العمر .. فأرجوك لاتنسى أحلامى بما هو مفروض وما هو غير مفروض .

كنت أحدثها بحماس غريب .. بل إن صوتى كان محملا بنبرات البكاء . . وجدت هدى تقترب منى وتحتضننى والدموع تملأ عينيها وتقول :

— والله يا «راوية» أنت صاحبة حق . فأنت مسكينة لم تسعد يوما من الأيام فما لى أنانية بهذا الشكل لأحدثك هذه الأحاديث المتزمتة .

قلت : ياهدى لا بد أن تعرفى أنى لا أبحث عن زوج .

أنا أبحث عن نفسي يا « هدى » .. أنا لا أريد زوجاً .. أريد إنساناً يجمعني وإياه شعور حتى ولو كان خطأ !! .

ربتت على كتفي وقالت :

— نامي يا « راوية » نامي وليفعل الله ما يريد .

ونمت وأنا أحتوي صورته في جفوني .. وأنا ألف ذراعي حول صدري كأني أحتضنه .. وفي مخيلتي ألف حلم وحلم .. كأني مراهقة أمام أول تجربة لها .

* * *

— ٥ —

وفى الصباح المبكر نهضت وارتديت ملابسى وودعت « هدى » وذهبت اليه . كان ينتظرنى فى كافتيريا أحد الفنادق الكبيرة كما اتفقنا .. حين رآنى نهض وخف لاستقبالى ...وقدمنى عليه فى السير والجلوس ثم جلس فى مواجهتى وهو يمسك بكلتى يدى والضحكة تملأ عينيه .

وقال : كم أنت جميلة فى هذه الحلة البيضاء ... يبدو أن اللون الأبيض يناسبك تماما .

قلت: استوحيته منك فأنا لن أنسى أبدا صورتك يوم زفافك فى حلتك البيضاء لقد كنت أسطورى الشكل ومن يومها وأنا أحب اللون الأبيض .

شدد قبضته على يدى وضحك .

قال : اسمعى ياصغيرتى .. بقى لى من أجازتى فى القاهرة عشرة أيام . هي لك كلها - إذا كانت ظروفك تسمح - نبدأها من هذا الصباح . فما قولك ؟

قلت : عشرة أيام ؟ عشرة أيام فقط ؟ هل تكفى يا «يوسف» ؟

قال : سأجعل لك منها عمرا طويلا سأجعل منها دنيا عامرة... سأجعلها بكل العمر... سأكون لك فيها كل شيء . لعلي انفذ منها إلى ماض من عمر أزيح ستائر الحزن التي خيمت على حياتك . وفاضت عيناه بحنان جميل .

قلت : عشرة أيام نبدأها من اليوم ؟

قال: نعم ياأميرتى .. ولكن أين اذهب بك ؟ أريد عالما خاصا لنا .. أريد دنيا تجمعنى أنا وأنت فقط لايعكر صفونا أحد ... ولاتخدش سعادتنا فكرة .. أريد جنة نائية تكون دنيانا معا .

هنا تمثلت لى جنة جدتى .

قلت : فلنذهب إذن إلى الجنة فى دمياط .

قال : ياالهى كيف نسيت هـذه الجنة أنها حقا ماأريد . أنا أذكرها جيدا بسلمها الصغير الخشبى المكسو بالخضرة وسطحها الممتد الأخضر اللون .. أنها حقا لنا كأنها وجدت لتجمعنا الآن معا هيا ياأميرتى نتناول الآن افطارنا نبدأ به أول أيامنا العشرة . ثم نتجه بعده إلى جنتنا الموعودة .

ثم طلب الافطار وجلس يتأملنى حتى أحضر الطعام فأخذ يعد لى

الشاي . . ويضع الزبدة على قطع التوست ويطعمنى فى حنان بالـغ .

أحسست كأنى طفلة تتمتع برعاية كبيرة وعيناه لا تكفان عن الضحك والنظر إلى .

فرغنا من الطعام . .

قال : هيا .

خرجنا وهو يحيـط خاصرتى بذراعه كنا نسير فى الشارع ونحن بهذا الوضع ... كنت سعيدة سعادة مفرطة ... فكل هذا لم أتعود عليه ولم افعله من قبل ... لم أخرج أبدا بصحبة شاب حتى حين كنت شابة يانعة .

كانت أول تجربة لى فى دنيا الرجال هي تجربتى الفاشلة مع « عبد الجليل » .

والآن أنا أسـير فى شوارع القاهرة يحيطنى « يوسف » بذراعه ونضحك ونتكلم كأننا بمفردنا .

قال : يجب أن يذهب كل منا لاحضار بعض الملابس والأشياء ثم نلتقى فى المحطة بعد ساعة . . أساعة تكفيك ياأميرتى لاحضـار اشيائك ؟

قلت : نعم تكفى .

قال : إذن هيـا ليكن بيننا الآن فراق قصير نلتـقى بعده ثانية ... ولابد أن أوصلك أولا .

قلت : لا لاتضيع الوقت فأنا أعرف طريقى جيدا .

وحرنا من منا يترك الثانى أولا .

قال : انصرفى أنت أولا ثم أمضى أنا ...

قلت : لاأنت أولا . فرفض . .

ثم اتفقنا أن نترك بعضنا فى نفس اللحظة ويسير كل منا فى اتجاه . ومضينا وبعد بضع خطوات نظرت خلفى فوجدته أيضا ينظر إلى من بين الناس ... وضحكنا وظل كلانا يلتفت خلفه وحين يرى الآخر من بين الأجسام يلوح له بيده ونضحك إلى أن غاب كل منا عن الآخر .

وأسرعت الخطى بنشاط غير عادى وكنت قريبة من منزل المغتربات فسرت بخطوات تشبه الجرى أو القفز حتى وصلت وأسرعت إلى الغرفة أجمع أشيائى بخفة وسرعة كأنى أخشى فرار الدقائق منى . واصلحت زينتى بعـض الشىء ونزلت مسرعة وأتخذت عربة أوصلتنى إلى المحطة بسرعة .

ولم تكن الساعة قد مرت بعد . تلفت حولى باحثة عنه فوجدته يأتى مسرعا

وكأنه يخشى أن تضيع منه دقائق من لقائنا . أسرعت اليه ليحملني بذراع واحدة قليلا فوق الأرض ثم انزلني وقال :

— لم يأت القطار بعد فلنتمشى ..

فتركنا الحقائب واخذنا نمشي على رصيف المحطة جيئةوذهابا وهو يحيط خاصرتي أيضاً بذراعه ونتحدث ونضحك . . ولانحس العيون التي تنظر إلينا مستغربة طريقتنا في السير .

وجاء القطار وركبنا ونسينا أن نأخذ التذاكر من الشباك . وحين جاء الكمسارى أعطيناه نقودا أكثر لأننا بدون تذاكر وضحكنا من غفلتنا .

القطار يقطع الطريق بجد ونشـــاط كأنه استمد من حيويتنا خفة وسرعة... وشعاع شمس يسقط على عينيه يجعل منها بحيرتى عسل مصفى .

قلت له : ما أروع لون عينيك فى الشمس .

قال : ياليت الشمس تستمر أبدا حتى يحلو لك لون عينى دائما .

ضحكت وأسندت رأسي على كتفه فأحسست براحة الدنيا . . فأغمضت عيونى بينما أخذ ينسكب في أذنى لحن أغنية أجنبية تقول : « أنا أحبك . . ماذا استطيع أن أقول أكثر من ذلك » . يردد كلماتها بصوت خفيض . . يغنى

لى وحدى . . استعذبت الكلمات واستعذبت نطقه للأبجابزية . . فظللت مغمضة العينين إلى أن غفوت !!

ولم أدركم من الوقت بقيت غافية إلى أن سمعته يقول :
— هيا ياصغيرتى . . أفيقى فقد وصلنا .

وعجبت من أمرى ماسر هذه الاغفاءات المتكررة وأنا أريح رأسى على صدره .. وأنا التى عهدت نفسى لاأنام إلا بالمهدئات التى كنت أحملها معى فى حقيبة يدى أينما ذهبت .. أتبلغ راحتى معه هذه الدرجة حتى تسترخى أعصابى ويدركنى النعاس ؟ ياللعجب . .

ونزلنا دمياط . . المدينة الصغيرة الهادئة . . أنها كما هى تفوح منها رائحة مياه النيل .

قال : الطريق إلى الجنة قريب . . ولكن علينا أن نأخذ معنا بعض الأشياء التى سنحتاجها حتى لانزعج أنفسنا بالمتطلبات المادية . . وقد أحضرت لك جهاز كاسيت ومجموعة من أروع التسجيلات حتى نستمتع معاً بالموسيقى فنكون قد أكملنا كل احتياجاتنا .

ذهبنا إلى السوق واخذنا نشتري بعض الأشياء . . علب عصير وفاكهة وخضروات وزبد ولحم وشاي وسكر وبن وكل مايلزم لاقامة كاملة .. ثم اتخذنا طريقنا إلى الجنة .

وبلغنا المنزل وصعدنا وقبل بلوغنا السلم الصغير المنفصل قال :

— لابد أن اسبقك انا لأحمل هذه الأشياء التافهة إلى أعلى . . ثم أعود اليك لأحملك أثناء الصعود . فصعود الجنة شاق يا صغيرتى ويجب أن تدخليها على جناحى ملاك .

ضحكت وأنا اسلمه المفتاح وقلت له :

— اذن انت ملاكى الحارس .

وسرعان ماعاد وحملنى بين ذراعيه وصعد بى درجة درجة بهدوء . وأنا اضحك مرحة حتى أطلت احدى العجائز من شراعة الباب تسأل :

— من ؟

قلت : أنا « راوية » بنت الأستاذ « فاضل » جئت أنا وزوجى لقضاء بضعة أيام .

فقالت : أهلا وسهلا . ثم أغلقت الشراعة .

وأنهينا درجات السلم القليلة وعجبت من أن الخضرة قد زادت

وكشفت خاصة أني لم أعد ... فأصبحت ... تكاثفها أروع بكثير مما تركناها وتخلل الخضرة بعض زهور الياسمين مما أضفى على المكان رائحة عطرة لا أظن أن للجنة الحقيقية رائحة أجمل منها .. وقد اختفى الباب تماما تحت ستائر خضراء وبدا المكان جنة خضراء بالفعل.

نظرت إليه [illegible] هامسا [illegible] جنتنا

وفتحنا الباب ودخلنا .. أوقفني وتأمل الوجه [illegible] وقال:

— أهلا بعروس الجنة [illegible] —

— فارتميت على صدره [illegible] فضمني ضمة طويلة ثم قال: --

— هيا نعد طعاما ياصغيرتي حتى نسكت المعدة ونفرغ بعدها لأنفسنا.

قلت: هيا .. هل تجيد الطهي؟

قال: نعم سترين كيف ساعدك.

أعددت الطعام بضع شرائح الكبدة وقليل من الخضروات المسلوقة بينما أخذ هو يعد طبق منوعات من الخضر الطازجة والزيتون والبسطرمة والجبن [illegible] بعض زهور الياسمين مع أوراقها [illegible] ..

قلت له . سأدخل الحمام إلى أن ينضج الطعام وتكون أنت قد فرغت من إعداد مائدتك الأنيقة هذه .

قال : كما تريدين .

دخلت إلى الحمام انثر الماء على جسدى وأسرعت لأغير ملابسى فى حجرة النوم وإذا به ينقر بلطف على الباب ويقول :

— فلتتفضل سيدتى فالمائدة معدة .

— خرجت من الغرفة لأجده ينحنى انحناءة طويـــله ويقول :

— فلتتفضل أميرتى لتشريف مائدتى المتواضعة .

ضحكت وجلست إلى المائدة .

طال بنا الحديث والمداعبة حتى تحول وقت الطعام إلى متعة بالغة . . وحتى بعد أن فرغنا من الطعام ظللنا جالسين نتحدث حول المائدة وقد نسينا أننا انتهينا منه

وذكرت وقت الطعام فى بيتى حين كان ينقضى فى دقائق كأنه مهمة يريد كلانا أن ينتهى منها .. حين كنت أجلس أنا و « عبد الجليل » فى صمت كأننا فى خصام . أين هذا من جلستى هذه !! .

ورفعنا المائدة وكنت قد ارتديت رداءا منزليا جميلا وردى اللون أضفى على لونى مزيدا من الحيوية والدفء . وكان « يوسف » قد تجرد من حذائه وقميصه ولم يبق عليه إلا البنطلون المثنى الأطراف وكشف عن صدره فبدا رائعا وهو يتحرك على سجيته .

جلست على الفوتى المريح فجلس تحت قدمى على الأرض وأسند ظهره إلى رجلى . قدم لى سيجارة وأشعلها لى وأشعل لنفسه أخرى وجلسنا ندخن وقد لفنا صمت هادىء وكان للسكون صوت لأول مرة .. كان هذا السكون الذى يخيم علينا سكونا مختلفا عن ذلك السكون المميت فى بيت « عبد الجليل » . . حتى أننى أحببت السكون . . أحببته لأنه كان له صوت خافض ممتع أسمعه مزيجا من أنفاسى وأنفاسه ..ودقات قلبى ودقات قلبه .

فرغ من سيجارته استدار إلى أخذ يقبل ركبتى ويقبل كفى ثم جذبنى برفق ... أنزلنى من فوق الفوتى . . مددنى على الأرض وتمدد بجانبى وقال :

— ايه ياصغيرتى .. انا لا أريد أن اسألك عن تفاصيل حياتك حتى لا أثير أشجانك . . ولا أريدك أن تقصى على شيئا يؤلمك ... وانما أنا أعرف ... أكاد أن أعرف مابك ...

أكاد أعرف أنك لم تسعد في حياتك .. أكاد أعرف أن طاقات الحب
ظلت مخزونة في نفسك .. وجهك يدل على أنك عطشى . يامسكينة ياصغيرتي
أكاد أحس طعم الجفاف في حلقك . ياحبيبتي إنسي الآن .. إنسي كل هذا
لاتفكري إلا في جنتنا هذه .

قلت : حقا فكأني انتقلت إلى الجنة . لقد نسيت كل شيء بالفعل .. لم
أعد أذكر شيئا من العالم الذي انفصلت عنه سوى ابني .. أتدري ماذا سميته؟

قلت : أسميته « يوسف »

قال : ياحبيبتي هل كنت تذكريني ؟

قلت : ألم تكن تعرف أني كنت مسحورة بك منذ أن كنت في الثانية
عشرة . لقد كان العالم كله في جانب وأنت وحدك في جانب آخر . لقد كنت
بطل كل رواية أقرؤها .. وبطل كل فيلم أشاهده وكنت دائما أتخيلك في
صورة اخترعها خيالي .

وحين جاءني زوجي خاطبا .. قارنته بك .. وكان الفرق شاسعا .. ولكنني

رضيت به . لأنك كنت في نظري أسطورة [illegible] خرافة لا يمكن أن
تتحقق كنت دائما أحس أنك خلقت بمفردك .. بشكل خاص وحرام أن
أنتظر أن أجد شخصا يماثلك لأني ما كنت أفترض أصلا أنه يوجد شخص
يماثلك ... هكذا كنت أذكرك . وحين [illegible] ابني [illegible] تمنيت له أن

قال : [illegible] كل هذا وأنا لا أدري ؟! لقد كنت بالنسبة لي طفلة
ولكنني كنت أكثر [illegible] من أية طفلة أخرى كان يعجبني شكل شعرك
الناعم المنسدل على ظهرك وهذه القصة التي كانت تحلي جبهتك ومن تحتها تطل
عيناك الذكيتان وكنت أعجب من [illegible] ومن [illegible] في السنة
الأخيرة القبلاتي [illegible] أقل العروسين يوم الزفاف أنك تحبين الأولاد .
وأنك لو كنت كبيرة بضع سنوات لتزوجتك .

قلت : كم أسعدتني هذه الملوحظة وتمنيت وقتها لو أنك إنتظرتني
حتى أكبر

فاقترب مني وأحاطني وقال :
— وها أنا قد إنتظرتك حتى كبرت

فقلت : ولكن للأسف بعد فوات الأوان .

فأنزعج بعض الشيء وقال :

ـ أى أوان هذا الذى فات ؟ . . ومازال فى العمر بقية ..

وقد وجدتك ووجدتينى فمها كانت الأسباب لن أفقدك ولن تفقدينى.

شعرت بآلام تعتصر قلبى .. وأغدورقت عيناى بالدمع وقلت :

ـ ياحبيبى أنت لا تدرى ما ورائى من مشاكل . أنا زوجة وأم طلبت الطلاق .. وتركت البيت وتنازلت عن إبنى ولكن زوجى لا يريد أن يطلقنى حتى لا يسمح لى بالأرتباط بغيره حفاظاً على أم إبنه . . ثم إنى أشعر إننى بعد مرور عشر سنوات على وأنا متزوجة من هذا الرجل أنى شخت . كبرت . لم أعد أصلح لشىء أو أصلح لأحد .

اعتدل وجلس وأنا ما زلت مستلقية على الأرض وقال :

ـ لا أحب أن أسمعك تتكلمين بهذا الشكل . . أن كل مشكلة لا بد لها من حل .. ثم ما معنى أن زوجك تركك لا تصلحين لشىء ؟! . أن الحياة تيار متجدد وما دامت تسكن جسداً فلا بد له من التجدد فلا أحد يثبت عند حالة واحدة ولا أحد عاش بأحساس واحد لا يتغير .

أعجبنى حماسه وهو يتكلم كل ملامح وجهه تتكلم .. قلت له:

— تكلم.. تكلم أكثر فأنا أحب حماسك هذا . وأحب تعابير وجهك وو أنت تتحدث.

ابتسم وقال :

— حرام ياحبيبتى أن تحاولى تجميد نفسك .. أنت شابة وتملكين كل مقومات الحياة فلماذا لا تعيشين ؟ فقلت وهل خلوت أنت من المشاكل؟ .. كيف لن تفقدنى ولك زوجة وابن ينتظرانك فى لندن ؟

فقال : وما الذي يمنع ؟ ..هى زوجتى وهو أبنى ..وأنت حبيبتى .. فما الذى يمنع من أن أتزوجك ؟؟ أنا رجل مسلم وأستطيع أن أتخذ زوجة وإثنتين .. وإذا استطعت أن تخلصى فسأتزوجك وأذهب بك إلى لندن .

ضحكت .. ضحكت من أعماقى بل إنى صرت أقهقه .. تتخذ زوجة ثانية ! ! ! ؟ .

أضحك وأضحك حتى احسست أن ضحكى إنقلب إلى بكاء!!.. واخذتنى نوبة بكاء عميقة كما كان ضحكى عميقاً ..

إحتوانى فى صدره يربت على فى رفق كمن يحتضن طفلاً باكياً يغمره بالحنان ليكف عن البكاء ولكنى كنت استعذب البكاء على صدره .. أنا .. بعد كل هذا العمر يأتينى كل هذا دفعة واحدة ؟ ! .

دفعة واحدة من السعادة أشرق بها لأنها تنهمر أنهـــاراً وليست قطرة قطرة !! .. مرة واحدة أجد رجلى .. حلمى .. أجـــده بين يدى محبا عطوفا يريد أن يتزوجنى ! .. آه ياعمرى الضائع آه يا أيامى التى سفحت ظلماً وضياعاً .

.. وهو ما زال يربت على وجهى ويمسح دموعى ويقول لى .. ما الذى يبكيك يا أميرتى ؟؟ [illegible] أتشبث به وأنا أقول :

— أنت رائع يا « يوسف » .. أنت أكثر من رائع .. كان مايعجبنى فيك هو شكلك .. وما كنت أفهم غير شكليات الامور .. أما الآن فتعجبنى أعماقك .. تعجبنى شخصيتك .. طريقتك فى التفكير .
.. أنت كثير على [illegible] أن أتعامل مع انسان كامل بهذا الشكل ...
أنت كثير على .. وما [illegible]

— [illegible] أكثر ثم قال [illegible]
[illegible] الحبيب [illegible] ولنغير هذا الحديث
الذى أبكاك [illegible]

وأنهضني وفتح الباب وأجلسني على أحد المقاعد المتناثرة في الروف الجميل وسط الخضرة والياسمين وقال :

— دقيقة واحدة احضر لك التسجيلات لتسمعي الموسيقى حتى أعد لك الشاى .

[illegible] وأحضر جهاز التسجيل وأدار أحد الشرائط فسمعت موسيقى أوزية هادئة وقال :

— عندما أعود بالشاى لن أجد للدمع أثرا فى عينيك [illegible] وهززت رأسي بالموافقة .. وغاب عنى دقائق [illegible] يحمل صينية الشاى ..

قلت له : .. [illegible]

[illegible] الساعة الآن ؟ [illegible]

[illegible] هل نلتقي [illegible] ... وأن الجنة ليس فيها زمن [illegible]

[illegible] وخلع [illegible] وذهب إلى [illegible] وأخذ [illegible]

وهو يقول :

— ماذا نريد من الزمن .. ماذا نريد وقد أعطانا هذه اللحظة غير المحدودة .. أنا شخصيا أحس كأنها الأبدية .. أحس أن هذه الجنه .. وأنا آدم .. وأنت حواء . ولاشيء يهم بعد ذلك .

كان يتكلم وهو واقف .. وأنا أنظر اليه مبهورة .. مبهورة بكلماته .. بتعبيراته . لم أسمع أبدا كلمات مثل كلماته .. ولم تمر بعينى نظرات مثل نظراته .

كان وجهه فى هذه اللحظة يفيض بتعبير رائع .. حتى عينيه الضاحكتين قد كفتا عن الضحك .. ويملأهما نداء .. .. شفتيه قد انفرجتا عن رغبة .. .. بمد يده قائلا :

— تعالى .. تعالى يا أميرتى .. ..

أنهضنى ليأخذنى بين ذراعيه ويدور بى مع النغم .. نرقص .. أذوب فيه وهو يحتوينى .. .. ونرقص .. ونرقص وهو يقبلنى .. ويضمنى .. ويعتصرنى .. .. وأنا متلاشية تماما .. لقد فنيت فيه . الموسيقى .. ورائحه الياسمين .. وضوء القمر .. ونسمة الليل الخفيفة .. وهو .. .. لم أعد أدرى بنفسى .

كل هذا شكل لى موكب زفاف شاعرى .

لقد أحسست أن كل هذه الأشياء تزفنى إليه ! ! .. حملنى .. وسار بى على مهل وأنا أسمع كل هذه الأشياء تزغرد من الفرحة .

كأن هذا الموكب يزف عروسا بكرا إلى فارسها بينما كل الكائنات تبارك هذا العرس .. وتنحنى إجلالا لهذا الموكب .

لقد مر بنا وقت طويل .. وهو يعاملنى كبشر .. .. ويخاطب جسدي باحترام .. .. .. ولقد شهد الربع الأخير من الليل رجلا يحتوى امرأته بكل كيانه بينما تتلاشى هى بداخله .. .. وقد ناما ملء عيونهما فى سكينة ناعمة .. وهدوء جميل .

.. .. ..

استيقظت في الصباح بعد أن غمر الضوء المكان . مرت علي لحظات
وأنا لا أعرف بالضبط أين أنا .. .. إلى أن عاد إلى الادراك ..
ووعيت ما أنا فيه .. وجدته راقداً بجانبي وقد أحاطني بذراعيه ..
وما زال مستغرقا في النوم .

ارتفعت قليلاً على الوسادة حتى يتيح لي هذا الوضع أن أتأمله . . . .
[illegible] يبدون . [illegible] الروعة وهم [illegible]

أطلت التأمل .. كأني أطبع صورة ملامحه التائمة في عيوني [illegible]
في نومه . . أحس بي . . فأسرع يضع رأسه على صدري فاحتويته في
صدري . . وملأ شعره أنفاسي وفمي . . . . أسندت رأسي على رأسه
لأستنشق رائحة شعره . . وظللت على هذا الوضع مايقرب من ساعة
لا أتحرك ولا أغير الوضع حتى لا أزعجه !! . .

ولا أدري كيف أصف احساسي في هذه اللحظة . لقد شعرت
بطوفان من حنان يملأ نفسي لهذا المرتمي على صدري . . . . تمنيت

لو أشق صدرى لأخفيه فيه [illegible] لو ينتهى عمرى وأنا أحتويه هكذا !! . كان يفيض بى الحب .. فأشدد احتضانى له .. ولكنى سرعان ما أخففه خشية أن أقلق نومه .

وكنت أسمع صوت نومه أنفاسا هادئة تعبر عن استغراقة فى النوم بصوت محبب لطيف . أحبته أذناى . ولا أدرى كيف وما كنت أطيق أن أسمع صوتا أثناء النوم !! ..

[illegible] وفتح عينيه [illegible]

— أمازلنا فى الجنة ؟ .

فقلت : نعم .. ومن ذا الذى سيخرجنا منها ؟ .

ابتسم وهو يقول :

— أجمل صباح ياعروس الجنة .

قلت : والله انه لأجمل صباح . فلم أشهد صباحا بمثل هذا الدفء والاشراق . دائما كنت أصبح وأنا وحيدة .. وأصحو مثقلة الرأس من من أثر الحبوب المنومة .. أما هذا الصباح فأنا نشطة .. فرحة .. دافئة القلب

قال : وماذا تعودت أن تفعلى بمجرد أن تفيق من النوم ؟ .

قلت : آخذ حماما .

قال : هيا اذن خذي حمامك .. ولكن انتظرى لأعده لك .

ثم نهض خفيفا نشيطا وغاب بضع دقائق فى الحمام ثم قال :

ـــ الحمام معد ياسيدتى .

قمت وأنا أضحك ودخلت الحمام .. فوجدته قد ملأ البانيو بالماء الدافىء .. ونثر فيه الصابون وأعد المنشفة قريبا من البانيو .. وقرب منه زحافة من البلاستيك .. .. أعد كل شيء لآخذ حمامى !!! .

بل انه أخذ من حقيبتى بنطلونا من الجينز وقميصا خفيفا علقهم فى الحمام لأرتدى ملابسى !!! .

عجبت وخرجت من الحمام لأقول له :

ـــ قل لى .. هل هذه عادتك دائما أن تعتنى بامرأتك كل هذه العنـاية ؟ .

قال : نعم .. ولكن الأمر يزيد معك كثيرا لأنك صغيرتى ..

طفلتي .. فلا بد أن أعتنى بك . فأرسلت له قبلة فى الهـــواء .. ودخلت الحمام .

وحين انتهيت خرجت فوجدته قد رتب الفراش ونظم المكان .. وجمع زهورا وضعها فى الفازة .. وأعد المائدة للافطار وقال :

— لم أحضر الشاى حتى يبقى ساخنا .

قلت : أنت تفعل كل هذا ؟ ..

قال : نعم .. فأنا أعيش فى لندن .. وكل الأجانب يتعاونون مع زوجاتهم .. وقد تعودت هذا لأنى أحيا حياتهم .. ومعك كما قلت يزيد الأمر كثيرا لأنك صغيرتى ! .

ثم قال :

— دقائق ياحبيبتى ..

ودخل الحمام .. وخرج مسرعا وقد غير ملابسه . جلسنا إلى الإفطار بعد أن أدار الموسيقى .

قلت : إذا كانت هذه طريقتك فى الحياة فما أحلى الحياة معك.

.. ولكن شرد ذهنى بعض الشىء وبالرغم من انى كنت مازلت أتحدث إلا انه انتبه إلى لحظة الشرود هذه وقال :

.. فيم تفكرين ياحبيبتى ؟ .. ان ذهنك ليبتعد عنى الآن .. فهل مازلت تفكرين فى حياتك السابقة ؟ .. هل أنت نادمة يا أميرتى هل بسبب وجودى المفاجىء فى حياتك يقلقك شىء ؟ ..

قلت : وجودك أنت ممكن أن يسبب لى قلقا ؟ .. أيعقل هذا ؟ .. والله انى ما أحسست اطمئنانا مثل الذى أحسه بجانبك . ثم على ما يكون الندم ؟ ان حياتى الماضية كلها لا تساوى لحظة ندم .. لقد فعلت ما فعلت وأنا مقتنعة تماما .. ثم ان وضعى السابق انتهى قبل وجودك لقد اتخذت قرارى بمفردى ولم يكن لوجودك أى أثر فيه لانه سابق عليه .. .. ولكنى أفكر فى أمر إختفائى .

ان أحدا لا يعرف أين أنا .. حتى أبى لم أخبره بتركى بيت « عبد الجليل » إلا بالتليفون ..

لم أقل لمخلوق إنى هنا حتى « هدى » لأن فكرة المجىء إلى هنا جاءت فجأة

قال : وهذا أجمل مافى الأمر .. ثم أردف ضاحكا :

ــ سأحضر لك الجرائد لنرى هل وجه أحد نداء لك بالعودة .. أو أبلغوا عن أمر اختفائك فضحكت وقلت :

ــ حقـا .. لابد أن نرى الجرائد .. وأحضر معك بعض المجــلات .

وجلسنا فى الروف نتصفح الصحف والمجلات .. ومعنا الموسيقى .

ثم قام وأعـد لنا القهوة وشربناها مع السجائر ثم قمنـا معا وأعددنا الغذاء .

قال : أنام قليلا .. فأنا متعود أن أنـام ظهرا ولو نصف ساعة .. وهذه عادة من العادت المصرية التى اصطحبتها معى إلى الخارج .. هل تنامين ظهرا ؟ .

قلت : لا .. ولكن لا بد لى أن أستلقى بعض الوقت لأستريح ولكن بدون نوم معظم الأحيان .

قال : هيـا اذن استلقى بجانبى .

وأنزل الوسائد على الأرض ... ونام بعد أن أخذته على ذراعى ... ونام كطفل .

وفى المساء سهرنا أمام التلفزيون ... جالسين على الأرض وحولنا صينية العشاء التى أعدها هو . كانت جلسة هانية ماجربتها أبدا .. جالسين على الأرض ... مستندين إلى مساند مريحة . أسند رأسى على كتفه أو رجله . . يطعمنى فى فمى ... وفى النهاية استكنت فى أحضانه ونحن نشاهـــد فيلما معروضا .

قلت : لو لم تكن معى لتصورت أنك بطل الفيلم . دائما كنت أتصورك بطل الفيلم الذى أشاهده . ولكنك حتى أجمل من بطل الفيلم !!

ضحك .

قلت : والله ... فأنت أطول منه . وأعرض منه . عيونك أجمل من عيونه ... شعرك كثيف أحب أن أغرس أصابعى فيه هكذا ... وأتنسمه هكذا .

قال : ليتنى كنت أعرف .. كنت اشتغلت فى السينما

قلت : الحمد لله حتى تظل بطلى أنا فقط ... فارسى أنا فقط .

قال وهو يحنو على :

ــ نعم ... أنا بطلك أنت فقط ... وأنت أميرتى أنا فقط !

وهكذا انقضت السهرة فى متعة الحديث معه حتى نمت وأنا مكانى فى أحضانه ... وأحسست به وهو ينقلنى برفق إلى الفراش ... ثم ينام بجانبى ويحتوينى .

هكذا كنا نحيا ... نعيش بطريقة جميلة .. طريقتنا الخاصة . لم يزعجنا شىء ... لم نفكر إلا بأنفسنا ... كنت أنا وهو فى الجنة .

... ...

وبعد ثلاثة أيام قال :

ــ ماذا تقول أميرتى لو دعوتها فى رحلة إلى رأس البر ... نسبح معا ... نستلقى على الرمال معا تحت أشعة الشمس نستخلص من الفضاء الرحب هواءاً نقيا نضفيه على جنتنا هذه .

قلت : فكرة رائعة ولكن لنشترى رداءاً للبحر فلم نحضر معنا .

قال: بالطبع نشترى .. ولم أنس أنك تجيدين السباحة كمعظم أهل دمياط. فنحن جميعا كنا نصطاف برأس البر .

قلت : طبعا ... وقد طال شوقى للبحر ... فطالما ألقيت بنفسى فيه وأنا طفلة . وكنت أنت تحملنى ... وتجعلنى أقفز من فوق ظهرك إلى الماء .

قال : وستقفزين مرة أخرى من فوق كتفي ... فقد كان يطيب لي أن أمرح معك على الشاطئ، ثم أحملك لألقيك في الماء .. .. كنت صغيرة جدا ياحبيبتي !! لو قال لي أحد وقتها أني سأرتبط بك يوما ما صدقته ... لأني كنت أظن نفسي رجلا وأظنك طفلة .

قلت : الفارق ليس كبيرا بهذا الشكل ... أظنه لايزيد عن عشر سنين .

قال : صحيح ... ولكن وقتها تفصل العشر سنوات بين الطفولة والشباب فصلا كبيرا .

قلت : أما أنا فلو أفهمني أحد وقتها أنك سترتبط بي يوما ما لانتظرتك حتى يجيء وقت هذا الارتباط . فقد كنت مغرمة بك منذ الطفولة .

قال : هذه الدنيا عجيبة حقا .. من كان يصدق أن «راوية» طفلتي المفضلة ستكون يوما حبيبتي برغم ما يفصل بيننا من عمر .. وما باعد بيننا من مسافات !! وبرغم حياتي التي تكونت .. وأسرتي التي وجدت ... حقا دنيا عجيبة ... ولكنها على كل حال تعطينا أحيانا ما كان يبدو لنا مستحيلا وتسعدنا به .

ولا أدري لماذا انقبضت فقلت :

– ولكنها سرعان ما تأخذ ما أعطت ... انها لاتعطي بسخاء.

قال: هي تعطينا لترضينا .. وتعوضنا . ثم علينا نحن أن نعرف بعدها كيف نأخذ .. الدنيا لامكان فيها لعاجز ياحبيبتي .. فطالما أن الإنسان عرف طريقا للسعادة فليناضل ويكافح حتى يبقى هذا الطريق مفتوحا له . وعلى كل لاأحب أن أسمع نبرة التشاؤم هذه من أميرتي الصغيرة الجميلة ... .
هيا هيا أسرعي حتى لانضيع الوقت .. ولكن لابد قبل أن نمضى من أن ننظف ونعيد ترتيب جنتنا هذه حتى إذا ما عدنا مجهدين وجدناها تليق باستقبالنا .

فنهضت مسرعة وأقبلت على العمل وهو معى .. وفى وقت قليل كانت الجنة مرتبة منسقة .. رائعة .

خرجنا بعد أن أخذنا بعض الحاجيات فى حقيبة صغيرة ... كان يسير وهو يحملها على ظهره .. ويحيطني بذراعه كما تعود أن يسير معى .

ذهبنا لنشترى أردية السباحة . ثم وصلنا إلى شاطىء النيل حيث لابد أن نأخذ لنشاً إلى رأس البر .

وكنا فى أخريات الصيف حين يقل عدد المصطافين فكان اللنش غير مزدحم .

قفز قبلي .. ثم مد ذراعيه وحملني إلى اللنش .. جلسنا وأنا في سعادة غامرة .. كان شعري يطير في الهواء .. ينتشر على وجهه .. أحاول أن أجمعه فيقول : لا .. أتركيه هكذا .. أريده أن يملأ وجهي .. أحب أن أراه طائراً مع الهواء .

الطريق إلى « رأس البر » نزهة نهاية جميلة خاصة إذا كانت مع من تحب .

وكانت هذه أروع رحلاتي إلى رأس البر .. على كثرة ما رحلت إليها .

كنت أرحل إليها طفلة .. وأعود منها طفلة .. أما الآن .. .. فشتان بين رأس البر اليوم .. ورأس البر الأمس !! .

هناك استأجرنا إحدي الاستراحات .

قال « يوسف » :

ـ هيا .. أرتدي المايوه .

وكنت لم أرتد المايوه منذ زمن .. بل أنها ستكون المرة الأولى التي أرتديه فيها وأنا كبيرة !! .

ووضح على بعض التردد .. قال :

ـ ماذا .. أتخجلين ؟ ..

ورفعنى عن الأرض وهو يدور بى ويقول :

ـ حبيبتى إمرأة شرقية خجلى !! هيا ياحبيبتى فنحن سكان الجنة لانتقيد برداء .. ثم نحن فى نهاية الصيف والمكان يكاد أن يكون خاليا .

خلعت ملابسى وجريت إلى البحر .. وجرى خلفى .. وألقينا بنفسينا فى مياهه الواسعة . أخذنا نسبح ونسبح حتى تعبت خاصة وإنى لم أكن متعودة على مجهود السباحة من زمن طويل ..

ولاحظ هو أنى مجهدة فقال :

ـ تعالى ياصغيرتى استندى على كتفى حتى ترتاحى فاستندت على كتفه وتنفست بعمق .. وأبتدأت أتأمل البحر فيما حولنا .. قلت لنفسى أنا فى هذا التية لاأجد غيره أستند عليه .. تماما كما حدث لى فى حياتى .. لقد كان هو الواحة الوحيدة التى ظهرت فى صحراء حياتى .

وملأنى الخوف من بعده عنى .. أشفقت من فكرة فراقنا قلت :

ـ « يوسف » هل ستسافر وتتركنى ؟

البحـــر

قال : لو أستطعت أن أسافر سباحة لسافرت وأنا أحملك !! . ولكن ياحبيبتى ماذا أصنع ؟ .. لابد أن أتركك هنا على أن تلحقى بى بعد أن تنتهى مشاكلك .. لابد أن تنهيها أولا .. لابد أن يكون لها حل .. دعى والديك وأهلك يتدخلون فى الأمر وأكاد أن أجزم أن زوجك سيقبل الطلاق لأن الرجل لايحتفظ بامرأة لاتريده . أن الرجل يخاف .. يخاف على إسمه من إمرأة ترفضه . ولاأظن أن تأكيدة لك بعدم الطلاق إلا تهديداً حتى يترك لك الفرصة فى التفكير والرجوع عن قرارك .. سيقبل .. وتصبحين حرة .. وتأتين إلى لتجدينى فى انتظارك .

قلت : هكذا بمثل هذه البساطة .

قال وعيونه تمتلىء بالأمل :

ـ هكذا بمثل هذه البساطة .

قلت : أنت لاتعرف « عبد الجليل » .

قال : فى مثل هذه الأمور كل الرجال سواء ..

كأن كلماته قد أمدتنى بقوة هائلة وأمل جديد .

قلت : هيا بنا إلى الخارج .

وسبحنا .. سبحت بجانبه بكل قوة كأنى قد استمددت منه قوة وصلابة .

استلقينا على الرمال .. قال :

ـ لابد أن أضع لك شيئا كى لايحترق جلدك .. وابتدأ يضع الزيت على كتفى وذراعى .. وكذلك وضعت له ..

قال : لنأخذ حمام شمس حتى تلوح الشمس لونك فتزدادين جمالا وإشراقا .

واستلقينا تحت أشعة الشمس .. رفعت رأسى أتأمله وهو مغمض العينين .. ممدا تحت الأشعة الذهبية .. بدا لعينى كتمثال من البرونز أبدع الخالق فى نحته وتصويره .

كنت سعيدة وأنا وهو راقدين فى هذا الفضاء الرحب . لقد كنت سجينة طوال عشر سنوات .. لم أر شمسا ولابحرا ولارمالا !! ..

ماذا كان ينقص « عبد الجليل » ليستمتع بمثل هذا المكان ؟ . لاشىء إلا أنه أنسان لايعرف كيف يستمتع أو يمتع من معه !! .

وفى وقت الظهر ذهبنا إلى النيل .. هناك فى رأس البر مكان للسباحة على النيل يعرف بمنطقة « الجربى » .. فى هذا المصيف يستحم الانسان فى مياه البحر المالحة ويستطيع أن يستحم فى مياه النيل العذبة .. هناك

تكثر المراكب والصيادون .. وقد اخترنا مركبا صغيراً قام صاحبها بتجهيز أكلة سمك مشوى لنا .

كان ألذ سمك أكلته فى حياتى .. كنا نأخذه من على النار مباشرة .. يلسعنا .. يقشره لى « يوسف » ويطعمنى فى فمى !! .. .. وأحضر الرجل خبزا بلديا وسلاطة .. .. وأكلت كما لم آكل فى عمرى .

بعد العصر قمنا بالتريض بالمشى على كورنيش النيل حتى وصلنا إلى نهايته فى المنطقة التى يلتقى فيها البحران .. والتى تعرف باللسان .. ..

ولم يكن أحد معنا .. وقفنا للتأمل .. والأمواج تضرب على الصخور ورذاذ المياه يتناثر من حولنا وكلانا غارق فى عينى الآخر . وبفيض الوجد به أو بى فأقبله أو يقبلنى .. .. لقد كان مايجمعنا فى هذه اللحظات شىء كبير . لم يكن حبا عاديا .. كنا كائنين وجدا بعضهما بعد طول انتظار .. كان ما بيننا نوعا من التواصل والاتحاد عجيبا على الحب والمحبين !! .. .. كنت أحس أنه جزء منى .. يسرى بداخلى .. كأنى ذبت بداخله وتلاشيت تماما فى أعماقه .. وكنت أحس أنه يشعر بنفس احساسى ..

يارب .. عمر بأكمله يخلو من قطرة حب واحدة ثم يأتينى الحب بكل هذا الكم !!! .. وهل أقوى على احتماله ؟ .

قال : أتحبين أن نبيت هنا ؟ ..

قلت : و نترك الجنة ؟ .. ألم تقل نحن سكان الجنة .. فكيف نهجرها ؟.
قال : عندك حق .

وعدنا فى طريق العودة تحدث بالتلفيون مع أحد أهله فى القاهرة ليتم له اجراءات السفر وحجز ميعاد العودة التى ستكون فى نهاية العشرة أيام .. وبعد فراغه من التحدث معه قال :

ـ هكذا لأبقى معك إلى يوم السفر ... فلن نترك الجنة إلا فى يوم السفر.

ابتسمت .. ولكن قلبى كان يبكى .. .. سيتركنى قريبا .. ستنتهى أيامى العشرة مسرعة .. كيف سأعيش من بعده ؟ .

حياتى تنقسم بحدة قسمين : ما قبله .. ومابعده . وشتان بين الأثنين .. فلا أنا أستطيع أن أعود إلى ما كنت فيه قبله .. ولا أنا أستطيع أن أبقى ما

أنا فيه معه فكيف سأكون ؟ .. و كيف ستكون حياتى ؟
ولكنى تركت هذه الأفكار جانبا حتى لا أفسد سعادة يومه .

وعدنا إلى الجنة .. وكانت جلستنا المسائية البسيطة المحببة .. نتناول العشاء أرضا أمام التلفزيون حتى أنام على رجليه .. فينقلنى إلى الفراش .

وفى صباح اليوم التالى قلت :

ـ هل نذهب إلى رأس البر اليوم ؟ .

قال : وما رأيك أنت ؟ .

قلت : اليوم نستريح هنا ... وغدا نذهب إلى هناك حتى لا نترك جنتنا وقتا طويلا .

قال : تماما .. فما أحلى الكسل والاسترخاء فى الجنة .

قلت ما أحلى التقاء أفكارنا واتفاق آرائنا .

قضينا اليوم بين مرح ... وصنع للطعام ... وسماع الموسيقى واستلقاء على

أرض الروف بعد أن نقلنا مجموعة من الوسائد للنوم عليها .

وفى ضوء القمر كنا نرقد ..

قال : ما رأيك .. نبيت هكذا ؟ ..

قلت : نبيت هكذا .

فأحضر من الداخل غطاء التففنا به ... الضوء يغمرنا ... الموسيقى تعزف في هدوء ... السكينة تغمر قلبينا ... ونمنا متعانقين .

... ...

— ٧ —

وفى ثلاثة أيام أخرى كنا نذهب يوميا إلى « رأس البر » .. كنا نلهو ما شاء لنا اللهو ... نجرى ... نلعب ... أقفز من فوق كتفيه إلى الماء كما كنت أفعل وأنا صغيرة ... أسبح بجانبه ... وكان يحب أن أترك شعرى سابحا خلفى فى الماء ... مرة حاولت أن ألملم أطرافه . قال :

— لا ... اتركيه ... فكأنك وهو يسبح خلفك حورية من البحر ! .

أستلقى بجانبه على الرمال ... فيقول :

— أغمضى عينيك ... ترينى . فأنا أغمض عينى وأراك . اغمضى عينيك حتى لا يؤذيها ضوء الشمس .. وسترينى وأنت مغمضة العينين كما أراك .

وفعلا كنت أغمض عينى وأراه ... ونتحدث معا ونحن مغمضى الأعـــين ! ! .

كان الحديث معه متعة ما بعدها متعة .. بعد الظهر نأخذ مركبا فى النيل .. يظل يجدف بقوة ويقول :

— اجلسى أمامى وأنا أستمد من وجودك قوة أعبر بها المحيط !

ـ دائما دائما كان يعاملنى كملكة .

قلت له مرة :

ـ أحس بجوارك انى ملكة .

قال : نعم فأنت مليكتى .. وأنت مملوكتى .

أخذتنى روعة التعبير .. وقلت :

ـ وأنت سيدى .

قال : أكمل ..

قلت : سيدي فقط .

قال : وعبدك أيضا ! .

قلت : أنت ؟ .. بكل كيانك الرائع .. وبكل ما فيك عبدى أنا !!

قال : نعم .. فالحب عبودية اختيارية يا مليكتى .

قلت : عبودية ؟ !!! .

قال : نعم .. ولكن فى كلمة اختيارية .. كل معانى الحرية ..

.. .. جميل الحوار معه .. جميلة كلماته ..

كنا نمشي على شاطئ النيل فى «رأس البر» ونحن نتحدث و نتحدث ولا نمل الحديث . وأحيانا يأخذنا الصمت حين نصل إلى منطقة إلتقاء البحرين .

يأخذنا الصمت المتأمل .. فيكون صمتا أروع من كل حديث .

كان حساسا ... فنانا ... يحركه الجمال ... يثير وجدانه الفن في الموسيقى أو الشعر أو الطبيعة .

أحسست وأنا بجانبه انى أشاهد الكون لأول مرة ... البحر ... والسماء لأول مرة ... أسمع الموسيقى لأول مرة ... أعرف المشى لأول مرة .. .. لأنه ينفعل بكل هذا ويمارس الحياة بحماس ويحسها بعمق .. .. رائع .. بديع هذا الانسان .

كان رأسى كاد أن يصدأ .. ذهنى أغلق .. معه أحسست بالتفتح .. بالانطلاق .. بالاحساس المتجدد .. لأنه يخاطب فى الحس والعقل .

يتلو شعرا ونحن نسير على شاطئ النيل .. وأحيانا يلقى حوارا بالانجليزية من إحدى المسرحيات .. يحفظ ألحانا كثيرة يطلقها صفيرا رقيقا من فمه .

انسان حى بمعنى كل هذه الكلمة . نمط من الرجال طالما تمنيته .. ..

وتمر أيام ثلاثة .. وأنا أحس أن كل عمرى هو هذه العشرة أيام ..

وأن كل يوم يمر منها هو سنة من العمر تسرع بى إلى طريق النهاية .. فما كنت أتصور لى حياة من بعده .

فيما مر من أيام أظنها سبعة إلى الآن .. أثرى عمرى ونفسى بأكثر ما يمكن أن أحصله فى سبعين عاما كالأعوام التي عشتها وأنا متزوجه .

لقد عشت عشر سنين مع « عبد الجليل » مازاد على نفسى ولا مشاعرى شيء .. بل على العكس فقدت نفسي ومشاعرى الكثير مما كان بها . أصبحت متبلدة .. صامتة .. ضاعت منى الحيوية .. تجمدت .. مت !!

فى كل ليلة كنا نعود فيها إلى الجنة بعد جولتنا الحية فى رأس البر .. كنت أعيد حساب الأيام بينى وبين نفسى .. أحسب مابقى لى وأعيد الحساب مرات ومرات لعلى أكون قد نسيت وزدت يوما .. ولكن يالأسف .. كنت أجد الأيام معدودة ومعروفة .. وكنت فى نهاية كل ليلة أقول له :

– مر يوم ..

ولكن حين اقتربنا من النهاية قال لى :

ـ أرجوك يا « راوية » . لاتحسبي الأيام أمامى بهذا الشكل فأنا أريد أن أنسى أن مانحن فيه سينتهى .

وحين لم يبق لنا إلا ثلاثة أيام قال :

لنخلد إلى جنتنا لا نفارقها إلا يوم السفر .

قلت : نعم فأنا لا أريد أن نضيع وقتنا فى الصعود والهبوط .. فى البحر والسباحة ومشاهدة الناس .. لا أريد أن تقع عيناى إلا عليك .. أتأملك وأطيل التأمل لتعى عيناى صورتك جيدا .. حتى أراك حين تغيب عنى .. أحقا ستغيب عنى ؟؟ ..

قلتها وقد أحسست ألما عجيبا يشق صدرى حتى انى تألمت بصورة واضحة .. وانحنيت وأنا أضغط على صدرى فى موضع الألم .

واضطرب « يوسف » بشكل واضح وصرخ .

ـ ما بك يا حبيبتى ؟ .

وبجهد استعطت أن أنطق :

— قلبي يؤلمني .

حملني .. مددني على الفراش وأخذ يدلك برفق موضع القلب وهو يقول :

— أرجوك لا تقتليني .. إن أردت سأترك كل شيء وأبقى بجانبك ولا يهمني ما يحدث بعد ذلك في أي مكان أستطيع أن أعمل وأعيش . . فهل هذه هي رغبتك ؟ .. أي شيء ياحبيبتي أفعله من أجلك .. أرجوك إن ألمك هذا يمزقني . لا بد أن تكوني قوية متماسكة حتى تستطيعي الانتهاء بسرعة من كل ما يمنعك عني .. تماسكي حتى تتغلبي على كل الصعاب التي تنتظرك لتأتي إلي سريعا فأنا أيضا لا أطيق البعد عنك .

كان يتكلم ووجهه ينطق بالألم .. وكانت دموعي تسيل بهدوء . واحتضنني بقوة وهو يقول :

— أنا لا أريد أن أفقدك ..

وأحسست بدموعه تمتزج بدموعي !! .

يا إلهي !! .. أيبكي ؟! . قلت :

— أتبكي ؟ ..

وأردت أن أسري عنه فابتسمت وأنا أقول :

ـــ أتبكي الآلهة ؟ .

قال وهو يبتسم :

ـــ اله ضعيف .. لا يحتمل أن يرى الدمع في عيون عابديه .

تحاملت على نفسي .. صممت على أن لا أدعه يشعر بما أعانيه من عذاب حتى لا يتألم . قلت لنفسي أمامي أيام عذاب طويلة ولا داعي لأن أبدأها من الآن .. يكفي أنه معي للآن .. وأنا أحتمل أي عذاب .. لكن لا أريد أن أراه يتألم .

وفي هذه الثلاثة أيام الأخيرة لم نترك بعضنا أبدا .. أنا وهو كأننا شخص واحد ! .. دائما يحتويني وأحتويه .. حتى الطعام كنا نغفل عنه أوقاتا طويلة .. وما كنا نحس جوعا إلا حين يتذكر هو ويقول :

ـــ لا بد أن أطعمك حتى لا تضعفي .

فنذهب معا لنعد أي شيء نأكله بسرعة حتى نخلو لأنفسنا .

حتى كانت ليلتنا الأخيرة .. قال :

ـــ سأقيم الليلة لك حفلا ..

قلت وقلبي باك :

ـــ حفلة وداع .

قال : لا .. بل حفلة لأمل اللقاء .

ثم قال :

ـــ إرتدي ثوبك الأبيض الذى رأيتك به أول مرة .. وسأذهب لشراء الشموع .. وسنرقص فى ضوئها .

كانت أمسية رائعة .. شاعرية .. فضية .. لا يقلل من بهائها إلا انها الأخيرة .

أحضر كميات من الشموع .. أضأناها معا .

إرتديت ثوبي الأبيض ... وجمع لى الياسمين أزين به شعرى .

قلت : الليلة لن أنام .. الليلة سأقضيها ساهرة حتى الصباح .. حتى لو نمت أنت نسأبقى فوق رأسك أنظر اليك .

قال وهو يضمنى :

ـــ ومن سينام ؟ .. تعالى نرقص ..



ومع الموسيقى ... وضوء الشموع ... ورائحة الياسمين ونسمة الليل ... فقدت وعي مرة أخرى !! .

أحسست نفسي أذوب من جديد ... أذوب ... أتلاشى وهو يضمني ويضغط ... ويضغط علي وأنا أنصهر كما تنصهر تلك الشموع التي أوقـــدناها .

وتأخذني لحظة جنون .. وأقول له :

ــ اضغط ياحبيبي ... اضغط لعلي أدخل إلى صدرك .. .. ولم يكن جنونه أقل من جنوني . فيقول :

ــ تعالي . اسكني صدري وجواني ...

يشدد على الضغط ... حتى أحسست اني اختنق وهتفت :

ــ ليتني أموت .

أحسست أنه لو استمر ضاغطا على بهذا الشكل .. فـأموت فعلا ... وكم كنت سعيدة ... سأموت به ... ياليتني ... ياليتني أموت.

وكأن كلماتي أفاقته . فخفف من ضغطه وأنفاسه تتهدج وقال :

— يا الهى هل جننت ... لقد أوشكت أن أوذيك ياحبيبتى .. وكنت أتنفس ببعض الجهد .

قلت : ياليتك استمررت ياحبيبى فقد أوشكت على الموت فعلا ... وكنت أتمنـــاه .

قال بلهفـــة :

— لا ... لا ... لا تتمنى الموت ... يجب أن تعيشى لى ... يجب ... يجب .. فأنا أحبك أحبك ... أتسمعين ؟ .

أشفقت عليه من هذا الانفعال وقلت :

— نعم أسمع ياحبيبى أسمع ... ولكن لا تنفعل بهذا الشكل فأنا لا أطيق أن أراك متألما ... أترك الألم لى . فأنا قد تعودت عليه .. أنا أحتمل ياحبيبى وأنت لا ... أنت لا .

أتكلم والدموع تملأ وجهى ... وأرى بسمة عيونه وقد أغرقتها الدمـــوع .. ..

كان كل ما حولنا يبكى ... الشموع تبكى أيضا ... وقد بدت فى عينى

كأنها أكفان بيضاء تغلف أجسادا محترقة . حتى كأنى فى موكب زفاف إلى قبر !! . صرخت :

ـــ لا أطيق منظر هذه الشموع الباكية ... أرجوك ياحبيبي ... إنى أحس بالفناء بينها .

احتضننى بلهفة وقال :

ـــ لا تخافى ... سأطفؤها كلها .

وحملنى ودار بى لنطفىء الشموع معا .. .. ثم أراحنى على الأرض واستراح بجانبي وهو يحتوينى فى ضوء خافت ...

قال : لا أريد أن أرى دموعا فى ليلتى الأخيرة ... ماهكذا يجب أن يكون وداعى . أريد أن أرى البسمة فى عينيك ... فى فمك .. فى جسدك .. « راوية » ... أرجوك ارحمينى .. حدثينى عن المستقبل .. حدثينى عن يوم حضورك إلى .. حدثينى بأمل ... ساعدينى على الاحتمال .. قولى شيئا يبعث فى نفسى الحيوية والرجاء .

كان يتكلم ووجهه يعتصره الألم ... وكان لا بد لى من أن أخرجه من هذه الحالة ... لقد كنت أنا فى حالة رهيبة من الألم ... ولكن عز على أن أراه

هكذا ... عز على أن تضيع الضحكة من عينيه ...

فقلت : حقيقى لماذا كل هذه الدموع ... وكل هذا العذاب وكأننا لن نلتقى ثانية ؟ ... إننا سكان الجنة يا حبيبى لا يكون بيننا فراق ... لنجعل من فترة هذا البعد أجازة نعود فيها إلى الدنيا فى زيارة قصيرة نعيش كأهلها فى سخافاتهم ومشاكلهم ... ثم نعود ثانيـــة إلى جنتنا التى ستجمعنا فى أى مكان سنكون .

ابتسم وقال :

— فكرة رائعة حتى لنعتبر هذه الفترة أجازة لأهل الجنة منها ... ونقوم بهذه الزيارة القصيرة للأرض لننهى حساباتنا القديمة ... ثم نعود لجنتنا مرة أخرى ... أنت رائعة فقد عثرت لنا على حل نقتنع به ... وضحكنا ... لكن ضحكنا هذه المرة لم يكن خالصا ... انما هو محاولة لأخف عنه ويخفف عنى ... ونحن أدرى بما فى قلوبنا .

قال : كم من الوقت يا « راوية » يلزمك تقضينه أجازة فى الأرض ؟ .

قلت : هذه أجازة اضطرارية ... أنا لا أرغب فيها ... ولكن أكلف

بها ... أجازة جبرية ... وسأحاول ألا أجعلها تطول .

قال : أرجوك .. اقضيها سريعا بقدر الإمكان ثم عودى إلى .

همست : سأعود إليك ... سأعود ياحبيبي .

مضى وقت طويل ... وهو يحتوينى ... وأنا راقدة بداخله! ! . جميل صوت الصمت الصمت الناطق بكل ما يعتمل فى قلبينا . أستعذب هذا الصمت الذى لا يقطعه إلا آهه منى أو تنهيدة منه .

وبعد مدة طويلة من الصمت الجميل سألنى بهدوء :

— « راوية » ... أنائمة أنت ؟ .

أجبته : كيف أنام .. .. وأنت مستيقظ بداخلى ! ... أنائم أنـــت ؟ .

قال : لا ... فأنا مشغول بسماع دقات قلبك .

قلت : أيزعجك ؟ .

قال : لا والله ... فأنا أحب صخبة هذا .

بعد فترة صدرت منى آهه عفوية لم أقو على كتمانها ... لم يتكلم ... لم يقل شيئا .. انما اكتفى بوضع يده فوق قلبي وظل يدلك تدليكا خفيفا ...

ثم أبقى يده على موضع القلب . وفعلا أحسست بالراحة فقد أدفأت يده قلبي .. وأحسست أن يده تسند قلبي وتثبته فى مكانه .

ولفنا السكون مرة أخرى .. مرت علينا ساعات الليل ونحن فى هذا الوضع ! ... ربما غفلت أو غفل هو ... ولكن احساسنا ببعضنا لم يغفل لحظة .

كنت متنبهة طوال الوقت إلى وجوده فى لحظاته الأخيرة بجانبى .

أفقت على صوته يقول :

— « راوية » حبيبتى طلع النهار ... ترى كم الساعة الآن ؟ ... نسيت أن ساعاتنا متوقفة منذ اليوم الأول ... « راوية » نريد معرفة الساعة ... « راوية » ... .

كنت أسمعه ولكنى لا أقوى على الرد . ولكنى قلت :

— آه تسأل عن الساعة ؟ أذن عدنا إلى الأرض .

قال : نعم .. العودة الاضطرارية كما تسمينها ... هيا ننهض معا ... . أوقفنى وقال :

— لا بد مما ليس منه بد ياصغيرتى .

قلت : أأحضر لك حاجياتك ؟ ...

قال : لا ... فلن آخذ من الجنة شيئا ... سأترك كل ما أحضرت هنا حتى إذا ما عدنا وجدناه . سنخرج من الجنة أنا وأنت بشخصينا فقط ... فهذه أجازة لا تستحق أن نحمل من أجلها شيئا . فقط الساعات حتى نعرف وقت أهل الأرض .

أدار الراديو حتى عرف الوقت وضبط الساعات وقال :

— هيا نغير ملابسنا ونتناول الافطار الأخير .

جلسنا نشرب الشاى وكلانا يتحاشى النظر فى عينى الآخر ... إلى أن أنتهينا .

قال : حان الآن الوقت لنغادر جنتنا ...

وقبل أن يغلق الباب ... نظر اليها كلها نظرة شاملة .. وأدار عينيه فى الروف الأخضر وقال :

— لقد قضيت معك عشرة أيام فى الجنة يا « راوية » ... أذكرها دائما .. ولا تبتعدي كثيرا عن هذه الجنة .. فقط الأيام التى تستدعى وجودك فى القاهرة من أجل انهاء الأوضاع الحالية . ولكن كل أيامك

الأخرى اقضيها هنا بل يا ليتنى أمضى أنا وأتركك هنا ... « راوية » لو كان فى امكانك البقاء إبقى ... أم تصرين على منظر الوداع الأخير فى المطار ؟ . حقا أنا لا أريد أن أتركك دقيقة واحدة ولكنى أفضل لو بقيت هنا وأرحل أنا حتى لا يكون بيننا وداع ثقيل فى اللحظات الأخيرة .

قلت : ماذا تقول ؟ أنا أبقى هنا وأنت ترحل ؟ ... محال ... ان لحظة أقضيها معك أفضل من عمر فى أي مكان بدونك حتى لو كانت الجنة هذه . ثم انها بدونك ستكون جنة مهجورة فما قيمتها ؟ . هي جنة بالفعل بوجودك فيها ... ثم ألم نقل أنها أجازة لكلينا نهبط فيها إلى الأرض لنشغل أنفسنا بما يشغل أهلها ؟ .

قال : عندك حق هي جنة بوجودنا معا فيها ... اذن وداعا يا جنتنا الغالية وإلى لقاء أرجو أن يكون قريبا ... وفتح ذراعيه وأخذ يدور فى فضائها الأخضر ثم احتضننى وقبلنى وأغلق الباب .

حملنى وقال :

ـــ سأهبط بك كما صعدت بك أول مرة :

وابتدأ فى هبوط السلم الأخضر الصغير . ولكن خطواته كانت مثقلة

هذه المرة . لم يكن خفيفا سريعا كما كان فى صعوده بى فى أول قدومنا .

وكنت أحس نفسى ثقيلة بين ذراعيه وكأن ما أحمله من ألم قد تراكم على جسدي فأثقله أضعاف أضعاف ما كان . لم يكن يضحك ... ولم أكن أضحك كما كنا إنما هو السكون المشفق يخيم علينا .. وفى الشارع سرنا منفصلين ... متباطئى الخطى .. كنت أضع يدي فى جيبي وأخطو ببطء . . وكان يعقد ذراعيه على صدره ويخطو ببطء أيضا .

سرنا بهذا الشكل .. لا كلمة ولا بسمة ... كان كل منا غارقا فى خواطره .. مستسلما تماما لأشجانه لكن بعد مدة أفقت وتنبهت انه يسير منفصلا عنى .

قلت : « يوسف » .. لماذا لا تحيط خاصرتى بذراعك كما تعودنا أن نسير ؟ .

قال : آسف يا حبيبتى . . ومد ذراعه يحيطنى بها ولكن ... لم يكن فى ذراعه المرح الأول الذي كنت أحسه .. كان كأنه يسندنى بذراعه ويعاوننى على أن أسير . وكان سيرنا المتباطىء كأنه موكب جنائزي نشيع به السعادة ... ونشيع به أيامنا العشرة .

وفى القطار جلسنا صامتين أيضا .. وبعد مدة قال :

— إيه يا « زاوية » .. لماذا لا تتكلمين ؟ .. قولى شيئا ..

قلت : قل أنت .

قال : لا بد من كسر هذا الصمت الذي يحيط بنا .. لماذا تخلت عنى طبيعتى المرحة المتفائلة .. لا لا .. لا يجب أن أكون هكذا .. سأحدثك عن المستقبل .. .. سأسافر إلى لندن .. وأقضى أياما وأسابيع فى جوها الرمادي المعتم . سيضايقنى البرد فى أول وصولى لأنى قادم من بلاد الشمس والدفء والحب .. ستمضى بى الأيام ولا أحد يعرف سري سواى .

سأعد الأيام وأحسبها لأري كم ستأخذ من عمرنا المشاكل التى ستواجهنا .

قلت بصوت خافت :

— وحدى

قال : نعم .. فلن يحلها إلا أنت .. وحدك المهم سأنتظر وأنتظر

إلى أن يأتيني نبأ منك بأنك قادمة .. سأجرى متلهفا لألقاك فى المطار .. فجأة ستسطع الشمس فى سماء لندن المعتمة .. وأرى أميرتى بثوبها الأبيض الجميل .. أرجوك أن ترتدى ثوبا أبيض يوم قدومك — أنت أميرتى السمراء التى ستمد لندن كلها بالدفء بسمرتها الدافئة .. أحملها وألف بها فى الطرقات .. وربما أصرخ فى الناس : هذه حبيبتى .. أميرتى جاءت من بلاد الشمس والحب لتبعث الحياة فى مدينتكم الباردة ثم أستقر بك أمام أول شخص يستطيع أن يزوجك لى !! .

كان يتكلم بحماس .. وقد عادت الاشراقه إلى وجهه .. والضحكة إلى عيونه .. وكنت أتابعه وغشاوة الدمع تفصل بين وجهه ووجهى . ولكنى كنت أبتسم فى سعادة من كلماته التى أمدتنى بتيار من الدفء تسرب . إلى قلبي الذي كنت أحس انه تثلج وتجمد فى صدري .

كنت أبتسم وعيونى دامعة .. توقف عن الكلام وقال :

— آه يا حبيبتى لو كنت رساما .. لرسمت لك الآن أروع لوحة ممكن أن يرسمها فنان .. ياليت ما يرتسم على وجهك الآن يخلده فنان فى لوحة يسميها « السعادة الباكية » فأنت هكذا بشعرك المنسدل .. ووجهك

الأسمر الذي تضيؤه الابتسامة وتطفؤها الدموع .. نموذج للوحة « السعادة الباكية » . السعادة التي لا يمكن أن تكون خالصة مطلقة .. ليتني رساما .. ليتني فنانا ..

قلت : أنت فنان فعلا فلا يمكن أن يحس هذه الأحاسيس إلا فنان .. فنان من الاعماق .. أنت فنان غير متخصص .. مادة فنك الحياة ككل .

وحين غادرنا القطار .. تحدث بالتلفون مع أحد أقاربه ليحضر له أوراقه وتذكرته .. ولكنه أوصاه ألا يحمل شيئا من ملابسه !! .. فهو يريد أن يسافر من غير حقيبة ولا أي شيء . . بل انه أوصاه أن يترك له أوراقه عند أحد موظفي المطار المعروفين لديه !! .

قلت : ألن تذهب لوداع أهلك ؟ .

قال : لا .. وداعي سيكون لك أنت فقط .. لا أريد أن أري أحدا سواك في لحظاتي الأخيرة هنا .

. .　　. .　　. .

— ٨ —

قال « يوسف » :

— أريد أن أسير معك بجانب النيل لتكون سمرتك وسمرتة آخر ما أتمتع به من بلادي .

فأخذنا عربة أخرجتنا من زحام المحطة .. وطلب من السائق أن ينزلنا على شاطىء النيل .. وسرنا .. وسرنا في مناطق هادئة خالية .. وحتى من مروا بنا ما كنا لنحس وجودهم . وحين نتعب نجلس متقابلين على كورنيش النيل .. نغرق في الصمت والتأمل وعيون بعضنا .

نظر في ساعته قلت :

— آه لقد فارقنا الجنة وأصبحنا من أهل الأرض وأنت تنظر في ساعتك الآن .

قال : لابد مما ليس منه بد ياحبيبتي .. مازال أمامنا وقت هيا نشترى بعض الساندويتشات ونذهب قرب المطار ونقضي ما بقى لنا من وقت في التجول حوله .

قلت : لا أريد أن آكل .

قال : لا .. من أجلي سنأكلين .. ولا تنسى أنا لا أريدك أن تضعفي كما قلت لك من قبل حتى تكوني قوية في مواجهة المشاكل .

قلت ضاحكة :

— ياليت للموضوع قوة بدنية .

قال : وأيضا حتى لا تضعفي حين تأتين إلي .. لأرى أجمل عروس متفجرة بالحياة والقوة والدفء .. فأنا لا أحب النساء الشاحبات ولا أريد أن تغيب هذه الحمرة الطبيعية الجميلة عن لون وجهك أبدا .

أخذنا عربة إلى وسط البلد .. وتركني لحظة وعاد بسندويتشات الشاورمة . ونزلنا من العربة قرب المطار وسرنا ونحن نأكل في الشارع .

قال : سنأكل سندويتشا واحدا معا ثم نأكل الثاني معا أيضا حتى لا يستقل أي منا عن الآخر .

وسرنا وهو يحيطني بذراع ويمسك بيده الأخرى الساندوتش يقربه من فمي ثم من فمه حتى انتهينا من الاثنين وبعدها قال :

ــ أرأيت .. لقد كنت جائعة وإلا ما أكلت مثلى .

قلت : أنت فتحت شهيتى . وإذا كان كل الأكل بهذا الشكل فلن أترك نفسى جائعة أبدا .

قال : أنا فى حاجة إلى فنجان من القهوة .. ولكن لا أريد أن أجلس بك فى كافيتريا المطار حتى لا أرى زحام الناس حولى . أريد أن لا يفسد لحظاتنا الأخيرة شىء . لا أريد أن أسمع ضجيج الناس ولا أريد أن أرى وجوههم .. حتى تطبع صورتك الجميلة فى عينى لا يزاحمها أحد .

قلت : ولكن أين سنجد فنجان القهوة على انفراد ؟ .

قال : لن أذهب بك إلى الكافيتريا ولو أدى الأمر إلى الاستغناء عن فنجان القهوة الذى سيرمينى فى الزحام .

سرنا وسرنا وهو يلفنى بذراعه إلى أن وجدنا كشكا صغيرا يجلس فيه رجل عجوز .. أطل عليه « يوسف » وسأله :

ــ عندك بن ياوالدي ؟ .

قال الرجل : نعم .. ولكن ليس عندى فناجين .. وأنتم الذوات تشربون القهوة فى فناجين .

قال « يوسف » : نحن لسنا بذوات .. نحن أولاد بلد ..
نشرب فى أى شىء .

قال الرجل : وليس عندى كراسي .

فقال له : ولانحب أن نجلس على كراسى .

فأخرج الرجل شيئا يشبه الشلتة أو المرتبة الصغيرة وضعه على الرصيف خلف الكشك وقال :

ـ إذن تفضلا حتى أعد القهوة .

جلسنا على الأرض ونحن متشابكى الأيدى .. وغاب الرجل عنا قليلا ويوسف يقول :

ـ نحن أولاد بلد فعلا يا « راوية » .. أليس كذلك ؟
فهززت رأسى وقلت :

ـ أنا معك أكون أى شىء تريده .. بنت بلد .. بنت ذوات .. فلاحة مودرن .. أى شىء .

وحين عاد الرجل بالقهوة جلس معنا وقال :

ـ أنا أستطيع أن أضرب الودع . هل تريدان أن أضرب لكما الودع ؟

فقال « يوسف » :

ـــ ياريت ياوالدى .

أحضر الرجل بضع ودعات بداخل منديل فيه قليل من الرمل . وصار يحرك ودعه فوق الرمل بعد أن أعطى ودعة ليوسف يسر لها بما يريد :

وأخذ يقول ليوسف :

ـ أمامك سفر طويل . وسيكون عيشك في هذا السفر . أنت تعيش مع أناس ولكنك تشعر بالوحدة . في بالك أنثى تتمناها .. وأنثى تعطيها ظهرك .

قال له يوسف : أخبرني عن التي أتمناها .

قال : هذه تعطيك وجهها .. ولكنها لن تصل إليك

قال يوسف : أعوذ بالله .. يكفي هذا .

وطلب منه ان يعطيني الودعة لأسرلها .

وأمسكت بالودعة وقلت لها :

ـ طمئنيني عن يوسف .. هل سيكون لي ؟

أخذ الرجل الودعة وخلطها بالأخريات . وظل يقلب ويقلب في الرمل والودع .. .. ثم لم منديله وقال :

ـ لا شيء يظهر .. وعلى كل حال طالعك تابع له .. أليس زوجك ؟ .

قلت : نعم زوجي .. ولكن لماذا لاتخبرني بشيء ؟ .

قال : الودع لاينطق لك بشيء .. أنت تابع له .. وأشار إلى «يوسف».

ضحك « يوسف » وقال :

ـ طبعا .. فأنا الرجل .

ثم حنا علي وقال :

ـ بمفهوم هؤلاء الناس أنت تابع لي .. وبمفهومي أنا .. أنا تابع لك وعبدك أيضا .

تركنا كشك القهوة وسرنا .. قلت ليوسف

ـ لماذا لم يخبرني الرجل بشيء؟.

قال : ألم يقل لك أن الودع لم ينطق بشيء لنا ؟ .

قلت : من غير المعقول أنه لم ير شيئا .. ربما رأى شيئا مؤلما ولم يرد أن يؤلمني .

قال ياحبيبتي ليس من المعقول أن تشغلي فكرك بقارىء الودع .. هؤلاء الناس يحفظون بضع كلمات يكررونها لكل الناس .

قلت : إذن لماذا حتى لم يذكر لى بعض هـذه الكلمات المكررة .. أنه لم يقل شيئا !! .

قال : هكـذا تراءى له .. ولاداعى أن نشغـل أنفسنا به فنحن نعرف طريقنا ونعرف ما سنفعله . أليس كذلك ياحبيبتى ؟ .

هززت رأسى موافقة فقط حتى لاأضيـع لحظاتى الأخيرة فى مثل هـذا الجدل . وإن كنت قد أحسست تشاؤما فى نفسى .

نسير ونسير حتى قال « يوسف » :

– اقترب الموعد ياحبيبتى . ليكن سيرنا فى اتجاه المطار .. ..

سرنا وقد عاد إلى شعور التجمد ..

قال : « راوية » .. لاتدخلى إلى زحام المطار ..

لاأريد أن أرى وجهك وسط وجوه الآخرين تبقين هنا .. أودعك هنا .. فى هذا الركن المواجه للمطار ... ... هنا سيكون وجهك بمفرده ما يملأ عينى ثم أتركك وأمضى مسرعا ولاأنظر إلى أحد .

قلت أظل هنا ... وأنت تمضى ؟ ! .

ـ قال : وما الفرق .. غير أنك ستكونين فى المطار فى وسط الناس . ابقى هنا بمفردك ... ولاتبرحى مكانك الاحين تقلع الطـائرة ... ...

وأنظرى إليها فى السماء حين تغادر المطار ... وستعرفينها ......لتكون آخر ما تراه عيناك هنا وأنت فى مكانك هـذا ... فيكون وداعنا مختلفا عن كل الناس .

كنت لا أقوى على الكلام ... ... فهززت رأسى موافقة . وأخترنا مكانا قريبا من المطار وقفنا به .

قال : هنا .. هنا أفضل مكان ... ...

قلت : لابد لى أن أستند على شىء ...

قال هذا السور الصغير خلفك أستندى إليه .

وقفت ... وقلت :

ـ أحان الوقت فعلا ؟ ...

قال : نعم ...

قلت : بهذه السرعة ؟ ...

فردد : بهذه السرعة !! ...

ظللنا برهة صامتين ... ... كلانا ينظر للآخر ... تشابكت أيدينا وغمرت الدموع عيوننا ... ... لكن بلا كلام .

بعد مدة قال :

ـ ابتسمى ... ابتسمى من بين الدمـوع ... حتى أرى لوحـة « السعادة الباكية » ... التى أبدعها أعظم فنان ... اللوحة التى أبدعها الله سبحانه .

ابتسمت .. ابتسمت وغلالة الدموع تحجب وجهـه عنى ... .. ركز عينيه فى عينى ... ضغط على يدى بشدة بيديه ... . ثم أفلتهـا مرة واحدة ومضى مسرعا لا يلتفت خلفه ...

وفى ثوان كان قد اختفى داخل مبنى المطار .

تجمدت اللحظة ... تبلدت المشاعر ...

تسمرت فى مكانى .. لم أحس ما مر على من وقت أمام عينى فقط عيناه التى تجمع فيها الدمع ...

ووجه الذى تغير لونه كأن كل دمائه تجمدت تحت جلد وجهه ... ...

ثم صورته وهو يسرع فى اتجاه المطار .

لم أدر كم مضى على من وقت وأنا جامـدة فى مكـانى ... مستندة إلى السور ... ... واضعة يدى فى جيبى حتى أحتفظ بآخر لمسة منه ...

الابتسامة على شفتى . والدموع فى عينى ... لقد أصبحت فعلا لوحة ...

كأنى لوحة مرسومة مثبتة فى الأرض ... ... لوحة « السعادة الباكية » لاروح .. ولاحياة .

لم أشعر بالوقت ولا بأى شىء آخر ... حتى سمعت أزيز الطائرة التى كانت قريبة جداً منى فى أول أقلاعها من المطار ...

فى هذا الوقت فقط .. ... انتبهت .. رفعت عينى نظرت إلى السماء . وجدتها هى الطائرة تحمل علامتها المميزة ... ...

فجأة وجدت نفسى أجرى تحتها !!! ...

لا أدرى لماذا أجرى ؟ ... ... لحظة جنون .. أجرى تحتها ... أجرى وأجرى ... أرفع ذراعى للسماء ضارعة ... يوسف ... ... يوسف ... ... كأنه سيسمعنى .. كأنه سيرد على !! .

وأجرى وأجرى . وجهى إلى أعلى ... وذراعى إلى أعلى ... لاأعى طريقى ولاأرى شيئا فقد أمتلأت عيناى بدموع غزيرة تنهمر بشدة وتحجب الرؤية . .

ولكن الطائرة لم تستجب لندائى الصارخ وفاقت قوتها قوتى . وأسرعت تجرى فى اتجاه السحاب ... وتشعرنى أكثر وأكثر بهوة المسافة بينى وبينها . واختفت تماما بين طيات السحاب .

وسقطت أنا على الأرض باصطدامي ببعض الأحجار سقطة شديدة .. ووجدتني جاثية على ركبتي فوق الحجارة .. متألمة . باكية .. صارخة وأنا أضرب الأرض بيدي وأصرخ إلى أين تذهب وتتركني يا يوسف . يوسف تعالى .. تعالى .. ..

وجمع من الناس يحيطون بي .. مندهشين من منظري !! .. وجوههم مشفقة من حالي .

وحين وعيت ما حولي .. أخفيت وجهي بيدي حتى أحجب عيني عنهم ..

أمسكني بعضهم يعاونوني على النهوض .. وأصوات كثيرة تملأ أذني .

البعض يسألني عن أي مساعدة . وبعضهم يريد أن يوصلني إلى أي مكان . وسيدة تقول :

ـ تعالى معي .. اتركوها لي سأعتني بها .

أدرت عيني في وجوه الناس وقد عاد لي بعض الوعي وأدركت ما حولي .. فشكرتهم بصوت خافض وأنا لا أقوى أن أواجه نظراتهم

المشفقة .. شكرتهم كثيرا وأخبرتهم انى بخير .. ولا أريد شيئا .. وانى أستطيع مواصلة طريقى .

تفرق الناس من حولى .. وتركونى .. واستطعت أن أتحامل على نفسى وأتظاهر بالقدرة على السير حتى يتركونى تماما .. وحتى أبتعد عن محيطهم .

ووجدت نفسى أسير وحيدة .. حزينة .. باكية .. متألمة من الجروح التى أصابتنى أثر السقطة .

أخذت أسير .. وأسير حتى تحت كشك الشاى الذى شربنا فيه القهوة منذ وقت قصير .. وقفت أمام الرجل العجوز وأنا أحاول الابتسام وطلبت منه كوبا من الشاى .

تأملنى الرجل طويلا ثم قال لى هامسا .

— أسافر ؟ ...

قلت بصوت باك :

— نعـم ...

قال : تعالى ارتاحى يا ابنتى ..

وأخرج لى الشلتة التى جلسنا عليها من قبل . إرتميت عليها منهوكة القوى ..

تركنى الرجل قليلا ثم عاد بكوب الشاى .. ووضعه أمامى وتركنى .

أخذت أشرب الشاى وأنا صامتة .. شاردة . واحترم الرجل صمتى .. وجلس بعيدا عنى .. وإن كان لم يغفل عنى طوال الوقت .. وهو ينظر لى باشفاق .

جلست مدة لا أقدرها بالضبط .. ولكن لم أكن أستطيع أن أجمع نفسى لأترك المكان .

كنت منهارة القوى تماما .. كأنى قد قمت بمجهود عنيف استنفذ كل قواى .

ولكنى أشفقت من جلستى هذه .. وأشفقت من أن تثقلنى حتى لا أستطيع النهوض إطلاقا .

فقمت وأعطيت الرجل نقودا مما كنت أحملها فى جيبى وشكرته .

ولكن الرجل العجوز .. رد لي النقود .. بل انه وضعها بنفسه في جيبي مرة أخرى وقال :

— مع السلامة يا ابني .. اعتني بنفسك . ومع السلامة ..

شكرته مرة أخرى .. وواصلت السير .

.. .. ..

— ٩ —

إلى أين ؟ . . . . . . لا أدرى . شعور طاغ بالضياع يملأ نفسى .

من أنا ؟ . . . . أين أنا ؟ . . لا أدرى . أحسست الطريق أمامى كأنه صحراء جليدية شاسعة . . وأنا أضرب فيها على غير هدى . لم أر من قبل كل هذه الطرق المتسعة . . كان إحساسى بأنى ذرة فى وسط كل هذا الفراغ . كل ما يحيط بى فراغ . فراغ مطلق !! وأنا . . نقطة صغيرة فى وسط هذا الفراغ المفزع .

أسير وأسير بدون هدف . . . . إلى أين ؟ . إلى أين سأذهب ؟ . هل أعود لبيتى ؟ . . محال . . بيت أبى ؟ . . محال . . بيت هدى ؟ . . لا أحتمل أن أحادث أحدا . بيت المغتربات ؟ . . لا . . فيكفينى ما أنا فيه من غربة بعده .

إلى أين اذن ؟ .

تمثلت لى الجنة . . هى المكان الوحيد الذى يمكن أن أذهب اليه .

هناك المكان الوحيد الذى يمكن أن أذهب اليه . هناك المكان الوحيد الذى أستطيع أن أخلو فيه إلى نفسى وأعيد تنسيق عقلى . هناك

أستطيع أن أكون وحيدة مع مازالت أحسه فى نفسى من كلماته .. ولمساته ووداعه .

لا أريد أن يكلمنى أحد .. أو انشغل بأحد حتى يظل ما بقى لى منه فى لحظاته الأخيرة متجسداً فى نفسى .

تلزمنى أيام اختلى فيها بنفسى حتى أستطيع بعدها أن أندمج فى الحياة والناس .

حتى أستطيع أن أفصل بين ما كان .. وبين الواقع الحالى .. ليس لى مكان إذن الآن إلا هناك فى « الجنة » أشم فيها ريحه .. وذكراه .

مرت على لحظات أفقت بعدها لأجدنى فى القطار وهو يجرى بى إلى دمياط إلى الجنة ..

ومن المحطة وجدتنى أسرع وأسرع لأصل اليها .. تمثل لى فيها شاطىء النجاة .. كأنها ما سينقذنى من كل ما أحسه من ضياع وفراغ .

وعلى سلمها وجدتنى أقطعه قافزة بشعور الغريق الذى يناضل بآخر ما تبقى له من جهد حتى يلمس أرض الشاطىء .

فتحت الباب .. ودخلت مندفعة .. وأغلقته خلفى .. بدا المكان كله أمامى وأنا مازلت مسندة ظهرى على الباب .

هذه جنتى الصغيرة التى عرفت فيها معنى السعادة . حقاً إنها ساكنة .. باردة .. فارغة .. مهجورة .. ولكنها الجنة التى احتوتنى أنا وهو .. المكان الوحيد الذى كان لنا بمفردنا .. لن أشعر بالراحة ولا الدفء إلا هنا .

تأملت المكان كله بنظرة واحدة .. هذه ملابسه متناثرة هنا وهناك .

هذه علبة سجائره .. وهذا جهاز التسجيل وهذه الشرائط التى اخترناها لنسمعها معاً .. .. .. ولكنه ليس هنا .. .. .. آه ياوحدتى القاتلة .

فتحت ذراعى كمن يريد أن يحتضن كل شىء فى هذا المكان . فتحتهما بكل قوتى .. ثم عدت وضممتها بكل قوة لعلى أجده داخل ذراعى .. ولكن آه .. .. .. لم يكن هناك سوى الفراغ .. .. بين ذراعى فراغ ..

حاولت أن أهدىء من نفسى .. ووجدت الوسائد مازالت ملقاه على الأرض فى موضع جلستنا الأخيرة .. انحنيت عليها برفق .. وجلست وسطها .. وجدت المسجل بجانبها على الأرض .. أدرته على آخر شريط كنا نسمعه .

انبعثت منه نغمات هادئة .. تمددت على الوسائد واحتضنت أحداها .. وأغمضت عينى .



كان الإعياء قــد نال منى تماما . . رأسى مثقل . . جسدى مرهق . . جروحى تؤلمنى .

أسلمت نفسى لغفوة . أغمضت فيها عيونى لعلى أراه . وحين تمثلت لى صورته وأنا مغمضة العينين ، أحسست بالراحة تتسلل إلى الجسد المضنى . . . . أحسست الهدوء يتسرب إلى الرأس المثقل . . وأحتضنت صورته فى جفونى ونمت .

حينما أفقت من نومى . . وجدت الصمت يحيط بى من كل جانب . صمتا ثقيلا . لاشىء يخفف منه .

المسجل قد توقف . . وحتى قلبى لا أسمع دقاته كما كنت أسمعها فى أوقات الصمت التى كانت تجمعنى معه . كان قلبى قد توقف هو الآخر !! .

ظللت فترة وأنا فى نفس الوضع . مفتوحة العينين ... غارقة فى السكون أحاول أن أجمع شتات ذهنى ... وأجمع بقايا أحاسيسى .

كل شىء كان متوقفاً ... لم أحس ألما فى قلبى أو ألما فى جسدى . كل شىء كان فى حالة سكون بل إنى أحسست كأن صدرى فارغ من الداخل . . مقفل على فراغ ... ليس فى الداخل قلب ولا معدة ولا أمعاء ...

كنت كمن يستخرجون كل ما فى جوفه تمهيداً لتحنيطه .. أحسست أنى إنسانة مفرغة !! ..

بقيت فى مكانى مدة يعلم الله أقصيرة هى أم طويلة .. بقيت وقتاً بهذه الحال إلى أن أخذ الادراك يعود إلى عقلى رويداً رويداً وفى تباطىء شديد .

نهضت .. حاولت أن أستعيد نفسى حتى أستطيع أن أتأمل ما أنا فيه .. وحتى أستطيع أن أمد تفكيرى قليلا إلى الأمام لأرى ماذا سأفعل .. أو ماذا يجب على أن أفعل . صنعت لنفسى فنجانا من القهوة .. وأخذت علبة السجائر وخرجت إلى الروف أجلس وسط خضرته أدخن السجائر سيجارة تلو الأخرى وغرقت فى تفكير عميق .

كانت كلمات « يوسف » المتفائلة عن ذهابى إلى لندن وحمله لى ودورانه بى فى شوارعها وهو يصرخ فى الناس : هذه حبيبتى .. إلى أن يضعنى أمام أول شخص يستطيع أن يزوجنا ..

كانت كلماته هذه تملأ أذنى . ومعها شعور بالمرارة من قسوة الطريق التى يجب على أن أقطعها لأصل إلى ما يصفه .

بل إنى وجدت المرارة تزداد حين فكرت فيما يجب على أن أواجه لأحقق له ما يريد .. .. بالبشاعة ما سأوجهه ..

أبى لن يساعدنى .. أبى ساخط على لاشك . فليس هو بالرجل الذى يقبل أن تختفى ابنته المتزوجة هكذا بعد أن تترك بيت زوجها ولا تذهب إلى بيته هو .

وأنا لم أذهب اليه لانى أعرف أنه لن يتعاطف معى أبدا .. بل كان سيهاجمنى كالعادة ثم يعيدنى إلى بيت « عبد الجليل » . مرة أخرى بعد أن يتهمنى بالتبطر والجحود .

وبدا لى وجه والدى وهو ثائر .. وهو يسخر من عقليتى وتفكيرى ويتهمنى بالتمرد.

بل من يدرى أنه سيقبلنى فى بيته ولو لحظة واحدة . فأنا فى نظره مجرمة ارتكبت جرما فظيعا لانى اختفيت ولا هو ولا زوجى يعرفان مكانى .

أنا أعرف أبى جيدا .. وأعرف صرامته وعدم مرونته . إن ما فعلت هو أفظع الأخطاء فى نظره .. بل انى أكاد أعرف ماكان يقوله لأمى بعد مكالمتى له . من المؤكد انه قال : هذه ليست ابنتى ولن أعرفها ثانية .. مؤكد انه قال لها . انها تجلب علينا العار .. انها مجنونة .. فكيف تترك رجلا مثل « عبد الجليل » !؟

« عبد الجليل » رجل ولا كل الرجال فى نظره .. هو أبى وأنا أعرفه فما كان يقبل أن ترفع أمى صوتها فى حضوره .. أمى عاشت على الطاعة المطلقة وهو عودها على ذلك .

أبى لا يعرف معنى أن تترك المرأة بيت زوجها .. أمى ما تركت بيته أبدا ولو حتى لمدة يوم واحد .

كانت حين يؤلمها شىء منه لا تزيد عن أن تختلى بنفسها وتبكى حتى لا تدعه يرى دموعها حتى لا تشعره بأن شيئا يغضبها !! عاشت معه بلا اعتراض على أى شىء .

فأنا فى نظرة مارقة .. فاسدة .. فمن سيساعدنى ؟ من سيقف بجانبى أمام عبد الجليل ؟ ..

« عبد الجليل » .. مرة واحدة ظهر أمامى بوجهه المكتظ باللحم ونظرته القصيرة الحادة الكريهة التى كانت تظهر فى عينيه كلما ضايقه شىء .

« عبد الجليل » هذا لا يمكن أن يطلقنى .. أنا أعرف أنه لن يطلقنى .

حقا انه ليس بحاجة إلى .. وقد تزوجنى فقط ليكمل الصورة التى تصور حياته تكتمل بها .

تزوج ليس لحاجته للزواج .. ولكن لأن الناس كلهم يتزوجون . وأعتقد أنه إن لم يصادفنى أنا لتزوج أى واحدة أخرى . المهم أن يمتلك زوجة والسلام . وهو لا يمكن أن يتخلى عن شىء امتلكه .. ثم أنه لا يريدنى أن أرتبط بانسان آخر حتى لا ينشأ ابنه فيرى امه مرتبطة برجل آخر غير أبيه .

انه يحرص تماما على مثل هذه الأمور .

« عبد الجليل » ليس من النوع الذى يطلق التهديدات . حين قال إنه لن يطلقنى .. فهو بالفعل لن يطلقنى .. كانت أحكامه قاطعة دائما .. وحين يقول كلمة .. فهو يعنيها تماما . حين قال سأتركك هكذا لا زواج ولا طلاق كان فعلا يعنى كلامه . وقد تقبلتها أنا وقتها وأقدمت على المغامرة لانى ما كان يعنينى أن يطلقنى .. كان المهم عندى أن اختفى من حياته أو يختفى هو من حياتى . وما كنت أحسب انى سأتمنى الطلاق يوما . فما كنت أعرف انى سأتمنى يوما الارتباط بانسان ما .

أما هو فكان يدرك أنني ولا بد سأرغب فى الارتباط فى يوم من الأيام . وقد جاء هذا اليوم الآن . وهو بالطبع مازال عند رأيه . وعنده مثل هذه الأمور تقنينات لا يتهاون فى حدودها فمهما قلت ومهما حاولت فلن أزيد عمن تنطح الصخر .

لن آخذ منه إلا الجـــراح والاهانة ودمار الأعصاب . سيحطمنى لو استطاع .. فالأفضل عنده لو اننى مت عن أن يطلقنى . أقسم لو اننى مت ما نال الأمر من « عبد الجليل » مثل ما نال منه طلب الطلاق !! .

فهو حين نطق يوم خروجى .. « لو أنك مت » كان كمن يقولها لنفسه .. كمن يتمناها حقا . . ففقدى بالموت ما كان ليسبب له أى متاعب . فقد كان وجودى وعدم وجودى فى حياته سيان .

أما انفصالى عنه بالطلاق فقد يسبب له فى حياته قلقلة لا يطيقها لأنه يسير فى حياته على خط واحد لا يحتمل الخروج عنه لأى سبب من الأسباب .

فما رأيته فى حياتى غير أو بدل من عادة اعتادها .. حتى عندما جاء ابنه لم يغير وجوده الجديد من طبيعته شيئا . لم أشاهده يوما يجلس معه ليداعبه أو يلاعبه ...

مواعيده محددة .. فى ساعة معينة يترك البيت وفى ساعة معينة يعود . لم يغير عادة جلوسه فى المكتب ولو يوما لاستقبال بعض الناس .. أو للذهاب لسهرة أو زيارة !! .

« عبد الجليل » لن يتركنى أبدا وأنا أعرف . لن أجنى منه إلا التحطيم والحرب التى لا أجد فى نفسى قدرة على تحملها .

من أين لى قوة أقاوم بها تلك الحرب التى لن أخرج منها منتصرة أبدا. أنا أعرف معركة.. وأعرف نتيجتها مقدما فكيف أقنع نفسى بدخولها .. وبأية أسلحة . وبأى خطة ؟ ..

ماذا أملك من وسائل الدفاع ؟ .. لاشىء . فأنا منبوذة تماما من زوجى . ومن أهلى .

لم يكن لى غير جدتى .. وقد ماتت .

حتى هذا الذى ملأ حياتى لا يملك لى شيئا .. ولا يستطيع مساعدتى.. لأنه لا يملك ما يحارب به فى جانبى .

وهو .. .. ماذنبه حتى أقتحم حياته الهادئة بكل متاعبى هذه ؟ .

وإن كان دخولى فى حياته سيسعده .. فما ذنب زوجته ؟ وما ذنب ابنه . إن حياتها هادئة فى ظله .

هذه الزوجة لم تؤذنى ولم تؤذه .. فكيف أشاركها رجلها ؟ .. وبأى حق . إنه قبل أن يرانى كان هادئا سعيدا بجانبها راضيا بحياته معها . لم يفكر أبداً فى اتخاذ زوجة ثانية معها . وجودى فقط هو الذى جعل هذه الفكرة تدخل رأسه .

وابنه . . ماذا ستكون نظرته لى ؟ .. سيكرهنى دائما ... ويكره أباه أيضا .. لأنه بلا سبب واضح عنده آلم أمه واتخذ عليها زوجة ثانية .. سأكون أيضا منبوذة مكروهة منها دائما .

و « يوسف » ماذنبه حتى أسبب له كل هذا الارتباك فى حياته ؟

حقا إنه يحاول أن يبسط الأمور وكأن أمر اتخاذ زوجة جديدة فى منتهى البساطة .. ولكنى بالطبع أفهم ما سيجلبه عليه هذا الإنقلاب فى حياته .

لن يكون الأمر سهلا وسيواجه متاعب جمة بسببى .. فأين هى الزوجة التى تسلم ببساطه فى أمر زواج زوجها ؟

ستنقلب حياته الهادئه إلى حياة قلقة مضطربة تظللها المشاكل والمتاعب

فربما تركته زوجته وربما أخذت ابنها معها .. بل ربما رفض الابن نفسه أن يعيش مع والده الذى خان أمه .

لن أجلب على « يوسف » إلا المتاعب والمشاكل والآلام .

أنا انسانة منحوسة .. كل ماجرى لى لم يكن مناسبا . تزوجت بالرجل غير المناسب لى .. وأحببت فى وقت ليس بالمناسب أيضا .. وحبيبى ليس بالرجل الخالص لى .. كل شىء خطأ خطأ .. وجدتنى أقولها بصوت مرتفع .. وأكررها حتى أنى أفقت على صوتى .. .. فوجدت كمية من السجائر هائلة قد شربتها فى أثناء استغراقى فى التفكير .

وجدت رأسى يكاد أن ينفجر . أمسكت برأسى وانفجرت باكية .. ماذا سأجنى .. ماذا سأحقق ؟ .. لاشىء .. لاشىء بالمرة .. لمـــاذا أعيش ؟ وماذا انتظر ؟ .. أيام العذاب ؟ .

لقد نلت كل ما كنت اتمناه فى العشرة أيام التى قضيتها مع يوسف .. كأنها عمر بأكمله .. لقد عشت فيها حياة تامة .. تمتعت فيها بالحب والدفء بالاحساس الجميل .. كأنها عشر سنين .

نلت فيها كل ما حرمت منه فى العشر سنوات التى قضيتها متزوجة .

لن أنال أكثر مما نلت .. لأنه أصلا لا يوجد ما هو أكثر مما نلت .. فلماذا أبقى لمواجهة أيام الحرمان والألم ؟ .

لقد كانت أيامى العشرة أروع ما فى أيامى كلها .. تعادل عمرى كله. كأن عمرى لم يكن إلا هذه العشرة أيام.

لقد كان وجودى عدما قبلها .. وسيكون عدما بعدها .. فلماذا أبقى؟ لماذا أبقى ؟ وهل أحلم بأنى سأصل إلى ما كنت فيه أثناءها ؟ لا يمكن .. مستحيل .. فأنا لا أجد أمامى بصيصاً من نور .. الدنيا مظلمة من حولى لا معين ولا مساعد فى قضيتى الخاسرة ..

أعلم أن قضيتى خاسرة . وخسارتها هي خسارة عمرى كله . فأنا حين أخسرها لن تكون لى حياة بعدها .. فلن احتمل الحياة بعدأن أعرف أنى لن أصل إلى « يوسف » فماذا انتظر ؟ .. فقط أيام العذاب المقبلة ثم لا شيء سوى الضياع في الوحدة .. أبدا أبدا لن يكون . فأنا بدون وصولى إلى « يوسف » لن أعيش .. وأنا أعرف ما من أحـد سيمكننى من الوصول اليه ... فلماذا اتشبث بالحياة ؟ وأى حياة هذه التى أريد الابقاء عليها ؟ .

حتى ابنى لا يحتاج إلى ... والده سيحرمنى منه .. لن يسمح لى بأن تضمنى

معه حياة إلا إذا انضم هو اليها أيضا وهذا هو الحال بالنسبة لي، فمنذ اليوم الذى تركت فيه البيت انتهى « عبد الجليل » بالنسبة لي . فالحياة إذن الآن بغير ذى معنى .. وقد استنفذت متعة الحياة كلها فى العشرة أيام الماضية ..

لقد كانت عشرة أيام فقط .. ولكنها تكفى .. تكفى لأنى عشتها كعمر طويل .. وكحياة كاملة .. اذن لاتعنينى الحياة الآن .. ولامعنى لها ولا لوجودى فيها ... سوف أنهيها الآن حتى لاتضيع منى ذكرى أيامى العشرة التى لن يكون فى حياتى غيرها .. ..

الدموع تغمر وجهى .. وتحجب العالم عن عينى .. وماعدت أرى .

أسرعت إلى الداخل .. فتحت حقيبتى .. أخرجت علبة الحبوب المنومة وهممت أن ابلع ما فيها .. ولكن لا ... ليس الآن .. ليس قبل أن أجلس لأكتب قصتى هذه ..

لن أمضى ولا يعرف عنى أحد شيئا ...

لابد أن يعرفوا ما قاسيته فى حياتى ...

لابد أن يعرف « عبد الجليل » معاناتى فى أثناء العيش معه . لابد أن يعرف ما أوصلتنى إليه كلماته الأخيرة . لابد أن يعرف أننى انهيت حياتى حتى لا أواجهه وأواجه حربه التى سيشنها على .

لابد أن يعرف أنى فضلت الموت عن العودة اليه !!

يجب أن يعرف كل شيء ولا يهمنى أن يغفر لي أو لا يغفر .. فأنى لا أشعر أنى قد أخطأت فى حقه .. لقد عشت معه فى الحرام .. يجب أن يطلب هو من الله أن أكون قد غفرت له أنا قبل أن أموت !! .

وأنا لا أغفر له .. لا أسامحه .. لا أسامحه أبدا على ما أضاع من عمرى .. لذلك لا يهمنى أن يسامحنى أولا .

لابد أن يعرف ابنى ما عانيت . لابد أن يعرف ابنى أن أباه قد فصل بينى وبينه منذ البداية . أبوه هو الذى أحضر مربية أجنبية لأنه لا يثق فى تربيتى له .. أنا أمه !! ..

ابنى لابد سيشعر بمعاناتى . سيشعر بعذابى ولابد أن يغفر لى .. إنه بعد الله الذى أطلب غفرانه هو فقط من يهمنى رضاه .. يهمنى أن لا يدينى بينه وبين نفسه حتى لو تظاهر بالسخط على ارضاء لوالده .. ويكفينى أن يسامحنى بينه وبين نفسه .

... ...

جلست أكتب قصتى هذه .. اكتب كل حرف فيها بصدق . لم أزيف

فيها ولا كلمة . فأنا بين يدى الله سبحانه .. وليس غرضى أن أنصف نفسى أو أتحامل على عبد الجليل » .

لقد وصفته كما كان ... ووصفت حياتى معه كما كانت . لم أكذب فيها ولو فى حرف واحد .. ولماذا أكذب وأتملق الناس وأنا ماضية عن دنياهم .. وليس لى مأرب فى حياتهم .

إنى اتركها باختيارى .. بإرادتى . فقد نلت منها كل ما كنت أتمناه فى عشرة أيام ..

أيامى العشرة أغنتنى عن الحياه بأكملها .. إنى أكتب .. وأكتب ... والساعات تمر .. لا أدرى مما حولى شيئا . فقط أكتب واكتب باندفاع واحساس صادق .. أحيانا تتساقط دموعى على حروفى . وأحيانا تتراقص الصفحة البيضاء أمامى . . ولكنى لا أكف عن الكتابة ...

أضع فى هذه الكلمات آخر نبض حياتى ... أصب على الورق آخر انفاسى .. فقد صممت على الرحيل بعد انتهائى من كتابة القصة ...

لا لن أموت وأنا هكذا ... سأترك الآن الكتابه .. وأعد لنهايتى مظهرا لائقا .... لأموت وأنا أرتدى ثوبى الأبيض الذى لاقيت به « يوسف »

أول مرة .. سأترك الكتابة وأدخل الحمام أغتسل من هموم الدنيا .. ومن ذنوبى ..

وبعدها أتوجه إلى الله بطلب المغفرة .. .. يا الهى .. أنت تدرى ... وغيرك لايدرى .. .. أنت وحدك تعلم من أنا .. وتعلم بى .. .. وأنا طامعة فى غفرانك فأنت الله .. الرحيم .. الغفار .

وها أنا ذا أضع ثوبى الأبيض الجميل الذى أحبه « يوسف »

أهرع إلى الخارج أحضر بعض زهور الياسمين أزين بها شعرى .. ..

هكذا رآنى « يوسف » آخر ليلة .. آه ... هذه الشموع التى شبهتها آخر ليلة بأنها أكفان بيضاء تضم أجساداً محترقة . هى باقية فى مكانها كما كانت . سأوقدها هكذا حتى تكتمل الصورة .. ..

ستزفنى هذه الشموع إلى الموت .. ستكون أنيسى الوحيد فى لحظاتى الأخيرة .. ..

أحضرت كوبا من الماء .. وجمعت فى يدى حبوبى القاتلة .. ..
ستقتلنى برفق .. سأنام ثم انحدر من النوم إلى الموت..... وأنا غافلة ..

هكذا ستكون نهايتى هادئة ..

ممدة هكذا على الفراش الذى ضمنى أنا وهو ..

زهور الياسمين فى شعرى ..

ثوبى الأبيض يلف جسدى ..

الشموع تتراقص باكية حولى ..

أوراقى بجانبى ..

هنا يا « يوسف » .. هنا سطرت أيامى العشرة معك .

ودونتها يوما يوما .. ساعة ساعة ..

فما كان فى حياتى كلها أسعد منها .

ولا أعز منها ..

وداعا ياحبيبى .. وداعا يا رمز الحب والعطاء .

ليبق لك منى أجمل ذكرى ..

عش فى ذكرى أيامنا العشرة الرائعة .

فقد وجدت فيها كفايتى ..

اكتفيت بها .. .. وفضلتها عن حياة ستكون خاوية منها . ..
وداعـــا ياحبيـــبي .. .. يا أمـــيري
وداعــا .. وداعــا .

* * *

« تمت »

رقم الايداع : ١٨٥١ / ٨١
بدار الكتب :

مطبعة الجيزة بالإسكندرية
ت ٨٠١٠٢٦